ظاهرة تجريح العلماء وأثرها على الدعوة الإسلامية

د. أحمد المعداوي مكي العفيفي

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

ظاهرة تجريح العلماء وأثرها على الدعوة الإسلامية

أحمد المعداوي مكي العفيفي
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
ahmedmekki@azhar.edu.eg

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فإن علماء الإسلام لهم قدر رفيع عند الله ﷻ ، فهم ورثة النبوة وحصن الأمة، كم من عالم أمات فتنة وأحيا أمة، ورد شارداً وأرشد ضالاً، وأقام فرضاً وبعث نفلاً، وفرج كربة وأزال غمة، فتقدُّم الأمم بتقدُّم علمائها ورفعتها برفعتهم.

ومع أثرهم العظيم في تحصين الأمة وحمايتها ونموها وتطورها، إلا أنه ظهرت فئة منذ أمد، تجاهلت الجهود العظيمة التي قدمها العلماء، والأثر الكبير الذي أحدثوه، فأخذوا يتصيدون أخطاءهم، ويرقبون أقوالهم وأفعالهم، فيعيبون عليهم هنات لا تُزري بهم، يجعلونها أموراً فادحة، تذهب بحسناتهم، وتحبط عملهم، فبهذا سوَّغوا لأنفسهم إطلاق اللسان في أعراض العلماء، فراحوا ينهشون لحومهم ويهتكون أستارهم، وليس من سبب شرعي أو مبرر عقلي يدعو إلى هذا فليس لديهم حجة إلا الهوى الشخصي والحقد النفسي.

وقد زاد هذا الطعن والتجريح لعلماء الأمة وتفاقم خطره حتى أصبح ظاهرة عمَّت المجتمع ونجمت بين الناس؛ لهذا رأيت كتابة هذا الدراسة التي اشتملت على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

الكلمات المفتاحية : ظاهرة- تجريح – العلماء- وأثرها – الدعوة

The phenomenon of defaming scholars and its effect on the Islamic call

Ahmed Al-Maadawi Makki Al-Afifi
Dawa and Islamic Culture Department
College of Fundamentals of Religion and Da`wah in Mansoura
ahmedmekki@azhar.edu.eg

Abstract

Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the most honorable messengers, our master Muhammad, may God bless him and his family and companions, and whoever follows them with charity until the Day of Judgment

For the scholars of Islam have a high destiny with God, they are the heirs of the prophethood and the fortress of the nation, how many of the scholar died of sedition and revived a nation, and he came back and went astray, and established an imposition and sent a child, and a distraction and removed a cloud, so the nations were advanced by the progress of their scholars and raised them by their elevation.

And with their great impact on the nation's fortification, protection, growth and development,

However, a class appeared a long time ago, ignoring the great efforts made by scientists, and the

great impact they had, so they started hunting for their mistakes, and watching their words and deeds, and they reproached them for things that they did not visit, making them foolish things, they go with their good deeds, and frustrate their work, thus they justified themselves to release the tongue in Symptoms of the scholars, so they started denouncing their meat and violating their curtain, and there is no legal reason or mental justification for this, so they have no excuse but personal passion and psychological hatred.

This stabbing and defamation of the nation's scholars increased and aggravated its danger until it became a phenomenon that pervaded society and struck among the people. That is why I saw the writing of this study that included an introduction, a preamble, three investigations and a conclusion.

Key words: phenomenon – defamation – scholars – and its effect – advocacy

المقدمة

الحمد لله الذي اصطفى لحمل أمانة العلم أتقى عباده فقال ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1]، فنوَّر الله بهم العقول، وهدى بهم القلوب، وزكَّى بهم النفوس، وأحرز لهم أعلى الدرجات، ومنحهم دعاء أهل الأرض والسماوات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أشهد العلماء على التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته فقال ﷻ: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [2]، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، فعلَّم الله به من جهالة، وهدى به من ضلالة، ووحَّد به من فرقة، وكثَّر به من قلة، فاللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، نجوم المهتدين، رجوم المعتدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فإن علماء الإسلام لهم قدر رفيع عند الله ﷻ ، فهم ورثة النبوة وحصن الأمة، كم من عالم أمات فتنة وأحيا أمة، ونشر خيراً وأزال شراً، ورد شارداً وأرشد ضالاً ، وأقام فرضاً وبعث نفلاً، وأحيا سنة وأمات بدعة، وفرج كربة وأزال غمة، فتقدُّم الأمم بتقدُّم علمائها ورفعتها برفعتهم.

ومع أثرهم العظيم في تحصين الأمة وحمايتها ونموها وتطورها، إلا أنه ظهرت فئة منذ أمد، تجاهلت الجهود العظيمة التي قدمها العلماء، والأثر الكبير الذي أحدثوه، والعلم الوفير الذي أحيوه، فأخذوا يتصيدون أخطاءهم، ويرقبون أقوالهم وأفعالهم، فيعيبون عليهم هنات لا تُزري بهم، وهفوات لا تقلل من شأنهم، يجعلونها أموراً فادحة، تذهب بحسناتهم،

(١) سورة آل عمران: آية ١٨.

(٢) سورة فاطر: من الآية ٢٨.

وتحبط عملهم، فبهذا سوغوا لأنفسهم إطلاق اللسان في أعراض العلماء، فراحوا ينهشون لحومهم ويهتكون أستارهم، وليس من سبب شرعي أو مبرر عقلي يدعو إلى هذا فليس لديهم حجة إلا الهوى الشخصي والحقد النفسي.

وقد زاد هذا الطعن والتجريح لعلماء الأمة وتفاقم خطره حتى أصبح ظاهرة عمَّت المجتمع ونجمت بين الناس لهذا رأيت كتابة هذا البحث مساهمة مني في بيان أسباب هذه الظاهرة وآثارها السلبية على الدعوة الإسلامية وبيان سبل الوقاية والعلاج من هذه الظاهرة.

أسباب اختيار الموضوع:

قد كانت هناك عدة أسباب دفعتني إلى كتابة هذا البحث وتتمثل فيما يأتي:

١- دفعني إلى معالجة هذه الظاهرة ما صمَّ آذاننا وأضرَّ أعيينا وأحزن قلوبنا من أساليب الانتقاص والطعن والهمز واللمز بعلماء الأمة، بل وصل الأمر إلى السب والشتم.

٢- بيان المكانة الرفيعة للعلماء في الإسلام.

٣- حفظ أعراض العلماء من الطاعنين فيها والمنتهكين لها.

٤- بيان أن حفظ لحوم العلماء مطلب شرعي ففي حفظها حفظ للدين فهم رمز الدين وسدنة الشريعة.

٥- التحذير من خطر ظاهرة التجريح التي عمَّت وفشت في المجتمعات الإسلامية.

٦- بيان أسباب الطعن في العلماء وتقديم العلاج الشافي لكلٍ منها.

منهج البحث:

اتبعتُ في هذه الدراسة مناهج البحث الآتية:

١- **المنهج الاسترادادي التاريخي**[١]: وقد تتبعتُ هذا المنهج في استقراء سير العلماء وبيان علاقة الاحترام والتبجيل التي سادت بين الطالب وشيخه وبين العالم وقرينه عبر التاريخ الإسلامي.

٢- **المنهج التقويمي**[٢]: وقد اتبعت هذا المنهج في تقويم حال أهل الجرح والتجريح وبيان مدى بعدهم عن الأدب والبر، وانخراطهم في طريق أهل الغي.

٣- **المنهج التحليلي**[٣]: وهذا المنهج نجده مبسوطاً في ثنايا البحث حيث قمت بتحليل بعض النصوص والأحداث لاستنباط العبر والشواهد منها.

ولتحقيق منهج البحث المذكور اتبعت الخطوات الآتية:

١- التزمت ما فرضه علىَّ البحث من الأمانة العلمية فنسبت كل قول إلى قائله وإن كان بتصرف أشرت إلى ذلك في الهامش وذلك بذكر (كلمة ينظر أو يراجع: كتاب كذا، أو بتصرف) وإن كان التصرف بسيطًا قلت: بتصرف يسير.

---

(١) هو عبارة عن "مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه، وكما كان عليه في زمانه ومكانه، وبجميع تفاعلات الحياة فيه". ينظر: البحث العلمي أساليبه النظرية وممارسته العملية، د. رجاء وحيد دويدري، ص ١٥١ دار الفكر بيروت، ط. الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) وهذا المنهج "يتجاوز الوصف التفصيلي إلى التقويم، وبعبارة أخرى يكون تركيزه على إبراز الإيجابيات والسلبيات وإصدار حكم على العمل موضوع التقويم". ينظر: البحث العلمي أساليبه النظرية ص١٥١.

(٣) المنهج التحليلي: عبارة عن "تفتيت الكلي إلى أجزاء، وتقويم الأجزاء لاختيار فرضيات معينة والوصول إلى نتائج جديدة". **ينظر:** البحث العلمي المؤسسي ص٧، د.عبد القادر الشيخلي، نشر: المنظمة العربية للتنمية الإدارية – جامعة الدول العربية – المؤتمر العربي الثالث – القاهرة- مصر ٢٠٠٣م.

٢- استشهدت على ما ذكرتُ بما في كتاب الله ﷻ من آيات القرآن، كما استشهدت أيضًا بأحاديث رسول الله ﷺ في هذا البحث، كما اعتمدت على مصادر تمثلت في كتب التفسير وشروح الحديث وكتب الدعوة، والتاريخ والتراجم وغير ذلك من المراجع الأخرى التي تثري البحث.

٣- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية تفصيليًا فأذكر عنوان الكتاب والباب ورقم الصفحة ورقم الحديث ودار النشر وتاريخ النشر.

٤- عزو كل قول إلى قائله ونسبته إلى مصدره مع ذكر رقم الصفحة وتاريخ الطبعة.

٥- أقوم بذكر الاسم الأصلي للمصدر أو المرجع واسم صاحبه كاملا مرة واحدة وبعد ذلك اكتفى بذكر ما اشتهر به كلاهما.

٦- بيان معاني الألفاظ الغامضة وإيضاحها من كتب المعاجم المعتمدة.

٧- الترجمة للأعلام القُدامى والمحدَثين من الكتب الأصلية للتراجم إن توفرت، وذلك قدر الاستطاعة، واقتصرت في الترجمة على المغمورين من الأعلام بالنسبة لعامة الباحثين أما المشاهير أو من جاء ذكره عرَضًا في البحث فلم أترجم لهم.

٨- وضع الفهارس العلمية وترتيبها على النحو التالي :

أ - فهرس المصادر والمراجع مرتبة ترتيبا هجائياً.

ب - فهرس الموضوعات.

خطة البحث

ظاهرة تجريح العلماء وأثرها على الدعوة الإسلامية

المقدمة وتشتمل على: أسباب اختيار الموضوع، ومنهج البحث، وخطة البحث.

التمهيد ويشتمل على:

أولاً: التعريف بمفردات عنوان البحث (ظاهرة– تجريح – العلماء – الدعوة الإسلامية).

ثانياً: صور ومظاهر التجريح.

المبحث الأول: أسباب ظاهرة التجريح

المطلب الأول: استباحة أعراض أهل العلم

المطلب الثاني: التعصب الممقوت.

المطلب الثالث: الإفراط في الغيرة على الحق.

المطلب الرابع: الحسد والحقد.

المطلب الخامس: سوء الأدب وأزمة الخُلق

المطلب السادس: غياب العالم القدوة عن القيام بدوره.

المطلب السابع: التعامي عن المشكلات الأصيلة للأمة الإسلامية.

المطلب الثامن: انعدام فقه الخلاف.

المبحث الثاني: الآثار السلبية لظاهرة التجريح على الدعوة الإسلامية

المطلب الأول: توسيع جراح الأمة.

المطلب الثاني: إلغاء الثقة في علماء الأمة.

المطلب الثالث: إعانة الأعداء في العداء.

المطلب الرابع: تحجيم انتشار الدعوة.

المبحث الثالث: سبل الوقاية والعلاج من ظاهرة تجريح العلماء

المطلب الأول: الأخذ على يد الظالم المجرِّح ونصحه

المطلب الثاني: بناء الأحكام على اليقين والبينة

المطلب الثالث: التزام الأدب عند التصحيح والتقويم

المطلب الرابع: وجوب الإنصاف وعدم المحاباة

المطلب الخامس: الاقتصار في المعالجة على الحاجة

المطلب السادس: نشر فقه الخلاف وثقافة التعايش بين طلائع الدعوة

المطلب السابع: مناقشة أهل التجريح والرد على شبهاتهم

الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

والله أسأل أن ينفعني وينفع الأمة الإسلامية بهذه الدراسة، وأن يتقبلها مني ويجعلها خالصةً لوجهه الكريم.

كتبه

د. أحمد المعداوي مكي العفيفي

مدرس الدعوة بكلية أصول الدين بالمنصورة

التمهيد

أولاً: التعريف بمفردات عنوان البحث

من الأهمية بمكان قبل الشروع في تناول إحدى الدراسات تحرير مفردات العنوان، لبيان المعنى الخاص المقصود من إيرادها في الدراسة، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

١- تعريف مصطلح "ظاهرة":

بعد البحث في معاجم اللغة العربية تبين أن لفظ الظاهرة مشتق من الفعل ظهر يقال: ظهر الشَّيْء ظهورا تبين وبرز بعد الخفاء وعَلى الْحَائِط وَنَحْوه علاهُ وعَلى الْأَمر اطلع وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ**﴾[١] وعَلى عدوه وَبِه غَلبه، فلفظ ظاهرة مفرد: وجمعه ظاهِرات وظواهِرُ: وهو صيغة المؤنَّث لفاعل ظهَرَ[٢].

وأما في الاصطلاح فيطلق مصطلح الظاهرة على "الْأَمر الذي ينجم بَين النَّاس"[٣]، كما أنها تطلق على "أي حادث يمكن مراقبته"[٤].

وعلى هذا فالظاهرة تطلق على الأمر الذي نجم وانتشر في المجتمع، وعاينه ولمس آثاره العديد من أفراد المجتمع.

---

(١) سورة الكهف: من الآية ٢٠.

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٥٧٨) المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة، معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٤٤٣)، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٥٧٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/١٤٤٣).

(٤) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

٢- تعريف مصطلح "التجريح":

لفظ التجريح مشتق من الفعل "جرح" يقال (جرحه) جرحا شقّ فِي بدنه شقا فَهُوَ وَهِي جريح (ج) جرحى وَيُقَال جرحه بِلِسَانِهِ سبَّه وَشَتَمه وجرح الشَّاهِد طعن فِيهِ ورد قَوْله وَالشَّيْء كَسبه وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿**وَهُوَ الَّذِي يتوفاكم بِاللَّيْلِ وَيعلم مَا جرحتم بِالنَّهَارِ**﴾[١] وَيُقَال فلَان يجرح لِعِيَالِهِ[٢].

والمعنى المناسب لمصطلح التجريح في هذه الدراسة هو الجرح باللسان والمراد به السب والشتم.

ومن خلال المعنى اللغوي يتضح أن الجَرح جرحان :

أ- جرحٌ مادي وهو: أن يُحدِث الإنسان أثراً في الأجسام الحية من قطعٍ أو ذبحٍ، وهذا المعنى غير مقصود هنا.

ب- جرحٌ معنوي وهو : وصف الشخص بما يُؤذيه باللسان أو الكتابة أو الإشارة المُفهمة بسبٍ أو قذفٍ، وهو أشقُّ من الأول، وأشدُّ تأثيراً، وأعظم خطورةً منه، وفيه يقول الشاعر :

جراحـات السنان لها التئام ... ولا يلتـام ما جـرح اللسان[٣]

فجراحات البدن تلتئم سريعاً، وجراحات اللسان أو الكتابة أكثر بقاءً وأشد إيذاءً، ومنه جرح الشاهد إذا طُعِن فيه ورُدَّ قولُه[٤].

---

(١) سورة الأنعام: ٦٠.

(٢) المعجم الوسيط (١١٥/١)

(٣) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص٢٤، للإمام أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، المحقق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٧١م.

(٤) الجرح والتعديل بين النظرية والتطبيق ص٣، د. أيمن محمود مهدي، بدون تاريخ.

والجَرْحُ في اصطلاح المحدثين : هو الطعن في رواة الحديث بما يُسقط عدالتهم ، أو يُخِلُّ بضبطهم ، أو يُقلِّل منهما ، أو من أحدهما مما يترتَّب عليه سقوط روايتهم وردِّها أو ضعفهم، فالتجريح: وصف الراوي بصفاتٍ تقتضي تضعيف روايته أو عدم قبولها(١).

هذا هو ما اصطلح عليه المحدِّثون في تعريف لفظ "تجريح" والمراد بمصطلح التجريح في هذه الدراسة هو : "قيام البعض بوصف علماء الإسلام بصفات تسقط عدالتهم وتشوه صورتهم بين الناس؛ مع شططهم عن الحق وانحرافهم عن الطريق السليم في نصح الآخرين ومعالجة أخطائهم".

٣- التعريف بمصطلح "العلماء":

العلماء جمع لعالم وعالم مشتق من العلم، والعلم: نقيض الجهل، يقال: علم الشيء علماً عرفه، وعلم الشيء وبه شعر به ودرى وفي التنزيل العزيز: **{قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}**(٢)، وعلم الشيء حاصلا أيقن به وصدَّقه تقول علمت العلم نافعا وفي التنزيل العزيز: **{فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ}**(٣)، ورجل عالم وعليم قال ابن جني: لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كأنه غريزة فيقال عالم بمعنى عليم على وزن فعيل(٤).

---

(١) ينظر: أصول الحديث وعلومه ومصطلحه للشيخ محمد عجاج الخطيب ص ١٦٨، دار الفكر بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

(٢) سورة يس: آية ٢٦.

(٣) سورة الممتحنة: من الآية ١٠.

(٤) لسان العرب (٤٧١/١٢) بتصرف، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ، المعجم الوسيط (٦٢٤/٢).

والْعلم هُوَ "إِدْرَاك الشَّيْء على مَا هُوَ بِهِ وَيُقَال ملكةٌ يقتدر بهَا على إِدْرَاك الجزئيات، والْمعرفَة ترادف الْعلم وَإِن تعدت إِلَى مفعول وَاحِد وَهُوَ إِلَى اثْنَيْنِ وَقيل تفارقه بِأَنَّهُ لَا يَسْتَدْعِي سبق جهل بِخِلَافِهَا وَلِهَذَا يُقَال: الله عَالم وَلَا يُقَال عَارِف"(١).

وعلى هذا فيراد بالعلماء في هذا البحث: **طائفة من فضلاء المسلمين تُعنى بالعلوم والمعارف الشرعية وتشتغل بها لأنهم مؤهلون لإدراك الجزئيات في التخصصات العلمية المختلفة.**

٤- التعريف بمصطلح "الدعوة الإسلامية": إذا نظرنا إلى كلمة الدعوة في معاجم اللغة العربية نجد أنها تطلق ويراد بها عدة معانٍ ويتحدد المعنى المطلوب حسب السياق، ويتضح هذا من خلال ما يأتي:

جاء في لسان العرب: "الدعوة :اسم مصدر من الفعل دعا ومصدره الدعاء، والدعاء: الرغبة إلى الله ﷻ والدعاء: واحد الأدعية وأَصله دُعاو لأَنه مَنْ دَعَوْت، إلا أَنَّ الْوَاوَ لمَّا جَاءَتْ بَعْدَ الأَلف هُمِزتْ ، والدعوة: المرة الواحدة من الدعاء، دعاهُ: صاح به، والمصدر دعوة، ودَعَاه إِلَى الأَمِير: ساقَه، والدعاء بمعنى الاستغاثة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾(٢) ، قال الفراء : استغيثوا بهم، والدُّعَاةُ : قومٌ يَدْعُونَ إِلَى بَيْعَةٍ هُدىً أَو ضَلَالَةً، واحدُهم دَاعٍ وَرَجُلٌ داعِيَةٌ إِذَا كَانَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى بِدْعة أَو دينٍ، أُدْخِلَت التاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَالنَّبِيُّﷺ دَاعِي اللَّهِ"(٣)، وفي أساس البلاغة: "دعوت فلاناً وبفلان: ناديته وصحت به،

(١) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (ص: ٦٦،٦٧)، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ)، المحقق: د. مازن المبارك، الناشر: دار الفكر المعاصر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٣.

(٣) لسان العرب، للعلامة ابن منظور جـ٣/ صـ٣٦٦ : ٣٧٠ باختصار، ط دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

ودعاه إلى الوليمة، ودعا الله له وعليه، ودعا الله بالعافية والمغفرة، والنبي ﷺ داعي الله، ودعوته زيداً: سمّيته"[1].

وعلى ضوء المعنى اللغوي يتبين أنّ الدعوة في اللغة تفيد الرغبة إلى الله ﷻ والدعاء والنداء والسوق إلى الشيء والاستغاثة والرجاء والحث على الشيء والترغيب فيه والتسمية وغيرها.

وما يُعنينا في هذه الدراسة الدعوية من هذه المعاني اللغوية هو أن الدعوة تستعمل لغة في معنى العبادة والتدين لله وهو المقصود بالإسلام، ومعنى الحث على الشيء وهو المقصود بتبليغ الإسلام ونشره.

وأما التعريف الاصطلاحي للدعوة فقد جاء في تعريفها بمعنى الإسلام نفسه أنها "هي النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ من ربه وأمره بتبليغها إلى الناس، وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة"[2].

أما الدعوة بمعنى التبليغ والنشر فقيل في تعريفها أنها "عملية إحياء لنظام ما لتنتقل الأمة بها من محيط إلى محيط والدعوة الإسلامية على هذا حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم، هذا النظام الإلهي قد اتخذ له مجرى في الحياة الإنسانية فكان له تاريخ يحفظ للدعوة منهاجًا، ودعاةً حملوها للناس بمنهاجها الفاضل وكان لها غايات حققت بها للبشر حياة ربانية"[3].

(١) أساس البلاغة – للعلامة أبي قاسم محمود بن عمرو الزمخشري– تحقيق محمد باصل عيون الصود، مادة (دعو) جـ١صـ ٢٨٨، ط دارا لكتب العلمية– بيروت– لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها صـ٣٣، د. أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة ناشرون ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٨م.

(٣) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها صـ٣، د. رؤوف شلبي، الناشر: دار القلم، الكويت، ط الثالثة.

من خلال ما سبق أذكر أن المقصود بمصطلح الدعوة الإسلامية في هذه الدراسة المعنيان معًا وذلك أن الدراسة تُعنى بمعرفة أسباب ظاهرة تجريح العلماء، وبيان مظاهر هذا التجريح، والذي بدوره يؤدي إلى التشكيك في الثقة بعلماء المسلمين مما يؤثر بالسلب على استجابة الناس لهم والعمل بنصيحتهم فتؤثر هذه الظاهرة على نشر تعاليم الإسلام والتزام الناس بها.

ثانياً: صور ومظاهر التجريح

لقد انتشر الطعن في العلماء والقدح فيهم عند بعض المنتسبين للدعوة، وعدُّوا ذلك من قبيل المعروف، وإسداء الخير للناس، وهذا العمل الذي أصبح ظاهرة نجمت بين الناس لاحظه الكثير من العلماء، واستاءوا منه وحذروا منه فهذا هو قول بعضهم: "يشهد عصرنا حملة غريبة وظاهرة عجيبة ألا وهي الاعتداء على هيبة العلماء العاملين, وطعنهم بخناجر الزيغ والضلال, ولقد شهدت الصحف والمجلات, والكتب والمقالات, وقاعات الدروس والحلقات نماذج كثيرة من تلك الحملات, فجلب على أمة الإسلام أبلغ الأضرار, فشتت الشمل المشتت, وفرق الجمع المفرق, وعمق الشق الغائر"(١).

فهؤلاء المتطاولون على العلماء تمثَّل تطاولهم في صور ومظاهر تظهر فيما يلي:

١- تعكير المجالس بألفاظ السب والشتم والاتهام بالضلال والفسق، بل ويصل الأمر بهم إلى الوصف بالخروج عن الصراط، وذلك متفشٍ بمجالسهم يتفكَّهون بلحوم العلماء في مجالسهم.

٢- تصنيف الكتب لأجل الطعن في أشخاص العلماء إن أُثر عن أحدهم مخالفة للمشهور، وربما لمخالفته ما ترجَّح في نظرهم مع كون المسألة

(١) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ (٢/ ٧٧٨)، د. عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة – الإمارات، عام النشر: ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

مناط الحديث خلافية، والأمر فيها واسع يسعه ويسعهم، فيقوم بعضهم بالتأليف ويختار عنوانا لكتابه ظاهره الطعن والشتم لمن يتصدى لمناقشة رأيه، وليتهم تعرَّضوا لمناقشة الرأي وتركوا صاحبه؛ ولكنهم صبُّوا جام غضبهم على صاحب الرأي وتتبعوا عوراته وكشفوا عنها، وانتهكوا الحرمات وأساءوا الظن وناقشوا الشخص ولم يكتفوا بنقد الرأي.

٣- الظهور على الهواء في البرامج الإعلامية والقنوات الفضائية؛ للقدح في علماء الأمة وتشويه صورتهم أمام العالم أجمع مسلمين وغير مسلمين، وهذا الطعن شمل العلماء المتقدمين والمتأخرين، فيخوضون في الأشخاص وينتهكون الأعراض، ولا يتعرضون لقضية علمية بالنقد، فطعنهم إفك وزور لا يصمد أمام دليل ولا يقوى أمام حجة وبرهان.

٤- ومن صور تجريح العلماء العاملين والفقهاء المصلحين حظر كتبهم ومصنفاتهم من الانتشار والذيوع، أو التحذير من اقتنائها إن انتشرت لأنها تتبنى وجهة نظر أخرى لا توافق هوى المجرِّحين مع كون الرأي المذكور في الكتاب معتبرًا مدعوماً بالدليل.

٥- ومن صور التجريح ومظاهره في عصرنا استخدام وسائل التواصل الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي في التشنيع بعلماء الأمة ولمزهم وهمزهم، فنراها طافحة بما يمرض القلب وينشر الرَّيب، ويهدد أركان الأمة ويقضي على دعائمها.

المبحث الأول

أسباب ظاهرة التجريح وأثرها على الدعوة الإسلامية

لقد كانت هناك أسباب عديدة ومتنوعة أدت إلى قيام البعض بتجريح العلماء حتى أصبح التجريح ظاهرة متفشية في أوساط بعض المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية ويمكن بيان هذه الأسباب من المطالب الآتية:

المطلب الأول: استباحة أعراض أهل العلم

من أخطر أسباب ظاهرة التجريح، هو أن المتطاولين على العلماء، لا يرون لهم منزلة، ولا لأعراضهم حرمة، فلا يحترمون مقامهم، ولا يصونون أعراضهم، بل يقعون فيهم بمجرد الاختلاف معهم، ولا يلتفتون إلى المكانة السامقة التي جعلها الله لأهل العلم والتي أكدتها نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف فمن ذلك قوله ﷻ: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾**(١)، وقال ﷻ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾** (٢)، وقال ﷻ: **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾**(٣)، وقال ﷻ: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**(٤).

فالله ﷻ قد زكَّى العلماء وأثنى عليهم وحرَّم طعنهم والوقيعة فيهم ففي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْب"(٥).

---

(١) سورة آل عمران: من الآية ١٨.

(٢) سورة الإسراء: من الآية ١٠٧.

(٣) سورة المجادلة: من الآية ١١.

(٤) سورة فاطر: من الآية ٢٨.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (١٠٥/٨) رقم (٦٥٠٢).

قال الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ[1]: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ ﷺ يَقُولُ: "إِنْ لَمْ يَكُنِ الْفُقَهَاءُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ , فَمَا لِله وَلِيٌّ"[2].

فهذا يدل على أن معاداة أهل الفقه والعلم والطعن فيهم مؤذنٌ بحرب الله ﷻ وانتقامه ممن يفعل ذلك، فعليه أن يفهم ويعي ذلك ليتقي غضب الله وعذابه.

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: "لحوم العلماء مسمومة، من شمها مرض، ومن أكلها مات"[3].

وقال الحافظ ابن عساكر[4]: "اعلم أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وإن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب"[5].

---

(١) أبُو محمد (١٧٤ – ٢٧٠ هـ) الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المصري: صاحب الإمام الشافعيّ وراوي كتبه، وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون، مولده ووفاته بمصر. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٢)، الأعلام (٣/ ١٤–١٥)، للمؤرخ: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى، باب أقاويل الصحابة إذا تفرقوا فيها (١٧٤) رقم (١٧٧)، حققه د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٣) المعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص: ٦٠)، للإمام عبد الباسط بن موسى العلموي الدمشقي الشافعيّ، المحقق: الدكتور/ مروان العطية، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م.

(٤) ابن عساكر (٤٩٩ – ٥٧١ هـ) علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين الدمشقي: المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية،. مولده ووفاته في دمشق. له " تاريخ دمشق الكبير" ، "الإشراف على معرفة الأطراف" في الحديث، وغيرها. ينظر: تذكرة الحفاظ (٨٢/٤–٨٦)، الأعلام للزركلي (٤/ ٢٧٣).

(٥) المعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص: ٦٠).

فما أطلق عبد لسانه ينهش لحوم العلماء، إلا ومرض قلبه وأوشك على الموت، إلا أن يتوب ويقلع عن ذنبه، ويكف عن جُرمه، وينسب الفضل لأهله ويحب أهل الفضل لحب الله لهم.

وقال الإمام ابن تيمية : "وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل، وعلى كل مسلم أن يرعى حقوق المسلمين؛ لا سيما أهل العلم منهم، كما أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ، ومن عدل عن هذه الطريق فقد آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا وكان من الظالمين"[١].

يتضح مما سبق أن من أسباب الطعن في العلماء هو استباحة أعراضهم واعتقاد أنهم بذلك يصلحون ويقومون بواجبهم في الدفاع عن الدين والعلم، وهذا الاعتقاد ليس إلا ظناً ووهماً، بل يهدمون الدين بهدم رموزه وأهله، ويفسدون العلم بانتقاص حملته.

ومثل هؤلاء ينبغي أن يُذكَّروا بنصيحة زياد بن أبيه[٢] فعن أَبي الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيّ[٣] قَالَ: "خَطَبَ زِيَادٌ، ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٣٩)، للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) زياد بن أبيه (١ – ٥٣ هـ): أمير، من الدهاة، القادة الفاتحين، من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل عُبَيد الثقفي وقيل أبو سفيان. أدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر. وكان كاتبا للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري أيام إمرته على البصرة. ثم ولاه على بن أبي طالب إمرة فارس. ولما توفي عليّ امتنع زياد على معاوية، وتحصن في قلاع فارس. وتبين لمعاوية أنه أخوه من أبيه فكتب إليه بذلك، فقدم زياد عليه، وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤هـ فكان عضده الأقوى. وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن تُوفي. ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٤-٤٩٥)، الأعلام للزركلي (٣/ ٥٣).

(٣) أبو الحسن المَدَائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ) علي بن محمد بن عبد الله: رواية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة، سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي. من كتبه " المردفات من قريش" رسالة، و " التعازي". ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٤-٤٩٥)، الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢٣).

فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي بِتُّ لَيْلَتِي هَذِهِ مُهْتَمًّا بِخِلَالٍ ثَلَاثٍ: بِذِي الْعِلْمِ، وَبِذِي الشَّرَفِ، وَبِذِي السِّنِّ، رَأَيْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ فِيهِنَّ بِالنَّصِيحَةِ، رَأَيْتُ إِعْظَامَ ذَوِي الشَّرَفِ، وَإِجْلَالَ ذَوِي الْعِلْمِ، وَتَوْقِيرَ ذَوِي الْأَسْنَانِ، وَاللَّهِ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ رَدَّ عَلَى ذِي عِلْمٍ لَيَضَعَ بِذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا عَاقَبْتُهُ، وَلَا أُوتَى بِرَجُلٍ رَدَّ عَلَى ذِي شَرَفٍ لَيَضَعَ بِذَلِكَ مِنْ شَرَفِهِ إِلَّا عَاقَبْتُهُ، وَلَا أُوتَى بِرَجُلٍ رَدَّ عَلَى ذِي شَيْبَةٍ لِيَضَعَهُ بِذَلِكَ إِلَّا عَاقَبْتُهُ، إِنَّمَا النَّاسُ بِأَعْلَامِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَذَوِي أَسْنَانِهِمْ»[1].

المطلب الثاني: التعصب الممقوت

عند البحث عن تعريف التعصب وجدت أن التعصب يدور حول معنيين: محمود ومذموم فالمحمود جاء في تعريفه أنه عبارة عن "شدة التمسك بالمذهب، ونصرة اجتهاداته في كل ميدان"[2]، وهذا لا يُذم ما دام أنه اتباع لاجتهاد معتبر، حيث رأى فيه المجتهد أن ما وصل إليه هو الصواب الذي يحتمل الخطأ، فينتصر لاجتهاده وكذا ينتصر له أصحابه وأتباعه، وهذا في الأمور ظنية الدلالة على المراد منها، أما الأمور قطعية الدلالة على المراد منها فالاجتهاد فيها واحد، والصواب فيها واحد، والتعصب المحمود غير مراد هنا إلا أن يشذ البعض ويغالي فيه، فيخرجه عن كونه اجتهاداً إلى كونه نصاً مقدساً.

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٣٤)، للإمام أبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٢) معجم لغة الفقهاء ص١٣٦، تأليف: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

وأما التعصب المذموم وهو المراد في هذه الدراسة فقد عرَّفه العلماء بأنه "عدمُ قبول الحق عند ظهور دليله"[١]، فهو التحجر والجمود على الموروث، ولو ظهرت قوة دليل غيره ردها وأعرض عنها.

وهذا التعصب الممقوت من أسباب تجريح العلماء والطعن فيهم، ويرجع سبب هذا التعصب إلى عدة أمور منها:

١- **الاستكبار والعناد:** فيستكبر عن الرجوع إلى الرأي الذي طالما خالفه، لأنه يرى نفسه عند قبوله في موقف الضعف والعجز، حيث ظهر ضعف رأيه ورجح رأي غيره، وهو مخطئ في تفكيره هذا بل إن الرجوع إلى الحق من شِيَم الكرام، لأن الإنسان يعتريه القصور والعجز؛ لذا أمر الله بالنصيحة وقبولها ليحصل السداد في الأمر، فعلى المسلم أن يسلك سبل الرشاد متى بانت له، وأن يرجع عن سبل الغي متى ظهرت له، وألَّا يستنكف عن مخالفة عادته وتركِ مألوفه.

وشأن الجِلَّة من العلماء أن يرجعوا عن رأيهم إذا ما ترجَّح لديهم غيره، فالإمام الشافعي رحمه الله له المذهب القديم بالعراق والجديد بمصر؛ وهذا لأنه تراءى له بمصر غير ما دوَّنه بالعراق بناءً عن تغير اجتهاده، والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في كثير من المسائل له روايتان، وكذا معظم أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم قد خالفوا المذهب، وكانت لهم اختيارات في المذهب بناءً على ما ظهر أمامهم من أدلة قوية كالنووي رحمه الله له اختيارات خالف بها المذهب الشافعي.

(١) التعريفات الفقهية ص٥٨، تأليف: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

فهذا شأن الأئمة الراسخين، أما الأذيال والأذناب فيتعصبون لغير دليل ويعظِّمون ويقدِّسون أقوال الرجال وإن خالفتْ الدليل.

٢- **الأهواء والأغراض الشخصية:** فقد يكون التعصب لوطن أو جنس أو شخص فلا يقبل ما يخالف هواه، وبالتالي يرد النصوص التي تلغي هذه العصبيات أو يقوم بتأويلها، وربما قام البعض باختلاق الروايات التي تدعِّم عصبيتهم، فيبغض المتعصب مَن يعترض على هذه العصبيات، وبالتالي يطعن في المعترض ويقدح.

٣- تربية النشء على أن الصواب هو مذهب بعينه، وأن ما عداه خطأ، ويعممون الأمر فيعتقدون أن الصواب مع هذا المذهب في كل قضية، ولا ينظرون في الدليل ولا يضعونه أمام مقاييس النقد العلمي بل يقبلونه برمته، وهذا لأنهم تربوا ونشأوا على هذا المعتقد، وجريرة هذا الأمر تقع على الشيوخ قبل الطلاب، فيجب عليهم أن يراعوا الأمانة العلمية وأن يتجنبوا كل عصبية مذهبية أو فكرية أو شخصية، وأن يشربوا الطلاب فقه الخلاف.

المطلب الثالث: الإفراط في الغيرة على الحق

إن حسن الظن أمر من أوامر الله ﷻ قال الله ﷻ : {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}(١)، كما أنه أدب من آداب المسلمين، فمع جناية القادحين وإساءتهم لأهل العلم ومن قبيل إحسان الظن أقول: إن بعضهم لم يدفعه إلى ذلك إلا الغيرة على الحق، فيندفع إلى هذا المزلق الخطير ويقدح في ورثة الأنبياء بدافع من الحمية للحق، ولا عذر له في هذا الأمر، بل غاية أمره أن يتصدى للرد على من نأى عن الحق والصواب من العلماء والباحثين،

(١) سورة النور: الآية ١٢.

فإن كان الخطأ قد ظهر في أجهزة الإعلام أمام الناس جميعاً، قام المدافع عن الحق بتصحيح خطأ العالم دون تجريح وذلك أمام الجميع ليحذِّر الناس من اتِّباع الضلال في الاعتقاد والعمل.

وإن كان الخطأ قد دُوِّن في كتاب أُصدر كتاب آخر لتصحيح خطأ الكتاب الأول دون التعرض لشخص الكاتب بل يجعل نصب عينه النقد العلمي، فعندما أخطأ الدكتور عبد الصبور شاهين[١]، وألَّف كتاب "أبي آدم عليه السلام قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة" وذكر فيه ما يخالف صريح القرآن، وزعم أنه كان هناك أوادم قبل آدم عليه السلام، وادَّعى أن آدم عليه السلام أبو الإنسانية وليس أبا البشر، وفرَّق بين البشر والإنسان مع ورود النصوص الصريحة التي ترد ذلك فقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾**[٢] وقال سبحانه وتعالى: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾**[٣] فاتضح من الآيتين أن الإنسان المذكور في الآية الأولى هو البشر المذكور في الآية الثانية والمراد به آدم عليه السلام.

ومع هذا الشطط قام كثير من العلماء بالرد عليه وتصحيح خطئه، ومن أحسن الردود وأشهرها ما دوَّنه د. عبد العظيم المطعني[٤] رحمه الله، فقد ناقش الكتاب ونقده نقداً علمياً رصيناً وأصدر الرد عليه في كتاب

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: مفكر إسلامي مصري خطيب مسجد عمرو بن العاص سابقاً، عمل أستاذا بقسم الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن فترة من الزمان، وله ٦٥ كتاباً ما بين مؤلفات وتراجم ولد سنة ١٩٢٩م وتوفي سنة ٢٠١٠م. ينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢.

(٣) سورة ص: آية ٧١.

(٤) د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني داعية إسلامي مصري معاصر، قدَّم إضافات ثمينة إلى المكتبة الإسلامية في البلاغة العربية وغيرها. من مواليد مايو ١٩٣١م بجزيرة المنصورية التابعة لمحافظة أسوان، حصل على الابتدائية ثم الثانوية ثم الالتحاق بكلية اللغة العربية، حصل على الماجستير عام ١٩٦٨م، ثم الدكتوراه عام ١٩٧٤م، والتي عنوانها خصائص التعبير القرآني، له مؤلفات كثيرة توفي في ٢٩ يوليو ٢٠٠٨م. ينظر: المكتبة الشاملة.

بعنوان "قصة أبي آدم عليه السلام بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض"، ولم يتعرض فيه الدكتور عبد العظيم رحمه الله لشخص الدكتور عبد الصبور رحمه الله، ولم تدفعه الغيرة والحمية إلى القدح والطعن في عالم خاض أرضًا غير أرضه فأتى بعَجَبٍ من القول وبدعٍ من الفكر.

وهذا هو منهج أهل الحق والعدل في التصحيح والتقويم والأمثلة كثيرة على هذا ومنها:

-أن الذهبي[١] رحمه الله ذكر بعض الهفوات لأبي حامد الغزالي[٢] أثناء ترجمته له في السير ثم قال بعدها : "الغَزَّالِي إِمَامٌ كَبِيْر، وَمَا مِنْ شَرطِ العَالِمِ أَنَّهُ لاَ يُخطِئ"[٣]، ثم قال: "مَا زَالَ الأَئِمَّةُ يُخَالِف بَعضهُم بعضاً، وَيَردُّ هَذَا عَلَى هَذَا، وَلَسْنَا مِمَّنْ يَذُمُّ العَالِم بِالهَوَى وَالجَهْل"[٤].

(١) الذهبي (٦٧٣ – ٧٤٨ هـ) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله: حافظ، مؤرخ، علامة محقق، مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١ هـ تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها " دول الإسلام"، و " تاريخ الإسلام الكبير". ينظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٣٢٦).

(٢) أبو حامد الغَزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، حجة الإسلام: له نحو مئتى مصنف. مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. من كتبه (إحياء علوم الدين). ينظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٢٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٣٩)، للإمام شمس الدين أبي عبد الله الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

(٤) المصدر السابق (١٩/ ٣٤٢،٣٤٣).

ومن أمثلة النقد البنَّاء ما ذكره الذهبي أيضاً في ترجمة أبي بكر القفال الشاشي[١] حينما أورد كلام أبي سهل الصعلوكي[٢] لما سُئل عن تفسير القفال فقال: "قدَّسَهُ مِنْ وَجْهٍ، وَدنَّسَهُ مِنْ وَجْهٍ، أَي: دنَّسَهُ مِنْ جهَةِ نَصْرِهِ للاعتزَالِ"[٣]، فقال الذهبي معقباً على قول أبي سهل : "قَدْ مرَّ مَوْتُهُ، وَالكمَالُ عزيزٌ، وَإِنَّمَا يُمدحُ العَالِمُ بكَثْرَةِ مَالَهُ مِنَ الفضَائِلِ، فَلاَ تُدفنُ المَحَاسِنُ لورطَةٍ، وَلَعَلَّهُ رَجعَ عَنْهَا، وَقَدْ يُغفرُ لَهُ بِاسْتفرَاغِهِ الوسْعَ فِي طلبِ الحَقِّ وَلاَ قوَّةَ إِلاَّ بِالله"[٤].

فهذا هو النهج السليم والفكر القويم الذي ينبغي أن يُعمم بين المسلمين جميعاً فيُحكم للمرء بغالب أمره، ويلتمس العذر لمن أخطأ، ويُحسن به الظن مع التنبيه على ما جانب فيه الصواب بحكمة وفقهٍ، ليتحقق التقويم والإصلاح.

ولكن هناك من تأخذه الحمية والغيرة، فيفرط في الرد ويتعدى التصحيحَ إلى التجريحِ، فيترك الرد العلمي إلى التشهير بالمردود عليه، بل ويجعلون هذا التشهير والشتم والسب ديناً يدينون به، فيقضون الساعات الطويلة والأيام العديدة في التنقيب والبحث عن هفوات العلماء وزلاتهم

(١) أبو بكر القَفَّال (٢٩١ – ٣٦٥ هـ) محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي: من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب. وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء. وعنه انتشر مذهب (الشافعيّ) في بلاده. مولده ووفاته في الشاش (وراء نهر سيحون) رحل إلى بلاد كثيرة. من كتبه (أصول الفقه). ينظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٨٣–٢٨٥)، الأعلام للزركلي (٦/ ٢٧٤).

(٢) أبو سهل الصُعْلُوكي (٢٩٦ – ٣٦٩ هـ) محمد بن سليمان بن محمد بن هارون الحنفي (من بني حنيفة): فقيه شافعيّ، من العلماء بالأدب والتفسير، له شعر كثير. مولده بأصبهان وسكنه ووفاته بنيسابور. درّس بالبصرة بضعة أعوام، وبنيسابور ٣٢ سنة. ورويت عنه فوائد. سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٢،٣٤٣)، الأعلام للزركلي (٦/ ١٤٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٨٥).

(٤) نفس المصدر (١٦/ ٢٨٥).

لنشرها والتشهير بهم، وربما عقلوا أو لم يعقلوا أن هذا من عمل الشيطان وأنه باب ضلالة وإفساد، وأن جرح شهود الشرع جرح للمشهود به.

ومن أمثلة هذا الإفراط في الغيرة التي تدفع إلى التجريح والتكفير ما حدث لأبي الوليد الباجي المالكي[1] "عندما قال بارتفاع أمية النبي ﷺ لقصة الحديبية فقام عليه أهل عصره حتى حكموا بكفره وقال بعضهم فيه:

عجبت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبا

ثم تطامنت الفتنة، وأوضح المحققون بأن واقعة الحديبية لا سبيل إلى إنكارها، لكنها لا تنفي الأمية، كما أن النبي ﷺ بُعث في العرب وهم أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، ومع هذا يوجد فيهم من يكتب مثل كتاب الوحي لكنهم على ندرة، ولم ينف هذا أمية أمته ﷺ من العرب"[2].

وهذا الإمام الحافظ ابن حبان المتوفى سنة ٣٥٤هـ "تحدَّث بقوله "النبوة العلم والعمل" فهُجِر وحُكم عليه بالزندقة وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله"[3].

لكن أنصفه المحققون من أهل العلم، فوجهوا قوله، واستفادوا من علمه وفضله، منهم ابن القيم والذهبي وابن حجر في سواهم من المحققين فقال الذهبي في شأنه: "وهذا أيضًا له محمل حسن ولم يرد حصر المبتدأ

(١) أبو الوليد الباجي (٤٠٣ – ٤٧٤ هـ) سليمان بن خلف بن سعد القرطبي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، مولده في باجة بالأندلس. رحل إلى الحجاز وبغداد والموصل ودمشق وحلب وعاد إلى الأندلس، فولي القضاء في بعض أنحائها. وتوفي بالمرية من كتبه (شرح المدونة). ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٥٣٥-٥٤٥)، الأعلام للزركلي (٣/ ١٢٥).

(٢) تصنيف الناس بين الظن واليقين ص٨٨،٩٨، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، ١٤١٣هـ.

(٣) تذكرة الحفاظ (٣/٩٠)، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

في الخبر, ومثله: الحج عرفة. فمعلوم أن الرجل لا يصير حاجًّا بمجرد الوقوف بعرفة وإنما ذكر مهم الحج ومهم النبوة, إذ أكمل صفات النبي العلم والعمل، ولا يكون أحد نبيًّا إلا أن يكون عالمًا عاملًا. نعم النبوة موهبة من الله تعالى لمن اصطفاه من أولي العلم والعمل لا حيلة للبشر في اكتسابها أبدًا, وبها يتولد العلم النافع والعمل الصالح، ولا ريب أن إطلاق ما نقل عن أبي حاتم لا يسوغ، وذلك نفس فلسفي"(١).

المطلب الرابع: الحسد والحقد

إن من أكبر عوامل القدح في العلماء هو ما اشتملت عليه قلوب قادحيهم من حسد وحقد وبغضاء، وتعريف الحسد جاء فيه: "حَسَدَه يَحْسِدُه ويَحْسُدُه حَسَداً وحَسَّدَه إذا تَمَنَّى أَن تَتَحَوَّلَ إِليه نِعْمَتُهُ وَفَضِيلَتُهُ أَو يُسْلَبَهُمَا هُوَ؛ قَالَ:

وَتَرَى اللبيبَ مُحَسَّداً لَمْ يَجْتَرِمْ(٢) ... شَتْمَ الرِّجَالِ، وعِرْضُه مَشْتوم(٣).

وعلى هذا فالحسد هو أن يتمنى المرء زوال النعمة من عند محسوده، سواء في ذلك زالت عنه لتصير إليه أم زالت عنه فحسب.

وأما الحقد فهو "إمساك الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَالتَّرَبُّصُ لِفُرْصَتِها"(٤).

ومن هذا نعلم أن الحقد ينتج عن الحسد، إذ أن الحاسد يتمنى الشر للمحسود، ويعجز عن التشفي به، وبلزوم هذا البغض والكُره للقلب يتحول

(١) تذكرة الحفاظ (٣/٩٠).

(٢) جَرَمَ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ جَرِيمة وأَجْرَم: جَنَى جِناية، وجَرُمَ إِذَا عَظُمَ جُرْمُه أَيْ أَذنب، قال أَبو الْعَبَّاسِ: فُلَانٌ يَتَجَرَّمُ عَلَيْنَا أَيْ يَتَجَنَّى مَا لَمْ نَجْنه. ينظر: لسان العرب (١٢/ ٩١).

(٣) لسان العرب (٣/١٤٨).

(٤) المصدر السابق (٣/١٥٤).

إلى الكيد للإيقاع والتشفي، فالحقد هو الحسد الأسود الدفين الذي جاوز حد تمني زوال النعمة إلى الاعتداء على المحسود باللسان أو باليد.

وبعد تعريف الحسد والحقد يتبين أنهما من آكد أسباب تجريح علماء الإسلام وأئمته إذ أن العاجز عن إدراك المزايا الكريمة والشمائل العلية، يشعر بالنقص لتفوق غيره عليه، وهذا إذا كانت هذه المزايا مكتسبة، أما إذا كانت موهوبة من الله ﷻ فيضيق صدره برؤيتها ويسخط على قدر الله إذا رأى من فُضِّل عليه فيها، فيتمنى أن تزول الفضائل والشمائل الحسنة وذلك مصداقاً لقول الله ﷻ: **﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** (١).

ولله در القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لزوجها ... حسدا وظلما إنه لذميم (٢).

فالحاسد لا راحة له أبداً؛ لأنه يعادي نعم الله ﷻ، وإذا كان الحسد في الدين والعلم كان أشنع وأقبح لأنه يؤدي إلى بغض أهل العلم المبلغين لرسالات الله والمنافحين عن دينه، ويتمنى ألا يعِزَّ أحدهم، وألا يقوى جانبه وألا يكون صاحب كلمة مسموعة بين الناس، وذلك لأنه لم يبلغ شأوه ولم ينل حظه، فلا يزال في تعب ما عاش ورحم الله الأحنف بن قيس حين قال: لا صديق لملول ولا وفاء لكذوب، ولا راحة لحسود ولا مروءة لبخيل ولا سؤدد لسيّء الخلق. وقال معاوية: كلّ الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها. وقال الشاعر:

---

(١) سورة النساء: من الآية ٥٤.

(٢) عيون الأخبار (١٣/٢)، للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

كـلّ العداوة قد ترجى إماتتها ... إلا عـداوة من عاداك من حسد[١]

وقد يظن البعض ألا حسد بين أهل العلم، وحقاً هو لا يوجد بين علماء الآخرة الذين لا يريدون بعلمهم عرضًا زائلاً من الدنيا، فلا يرومون جاهاً ولا يقصدون منصباً، بل يبتغون بالعلم وجه الله والدار الآخرة، فهؤلاء لا يضرهم افتراءُ أفَّاك ولا بهتانُ خرَّاص ولا يخافون على منزلة ومكانة بين الناس، بل جل همهم نظر ربهم إليهم وقبوله لأعمالهم.

ولكن الحسد يكثر بين علماء الدنيا الذين يتخذون العلم سُلَماً يرتقون بـه إلـى أهدافهم الدنيوية، فلا يتحركون إلا للمادة، وكأنهم حجبوا أنفسهم عما وراء المادة، فأمثال هؤلاء يحرصون على الشهرة والظهور بين الناس، ويريدون الاستئثار وحدهم بكل مزية ونفيسة، ولئلا يفوقهم أحد من العلماء ويصبحوا هم العلماءَ المبرَّزين أمام الجماهير يقومون بما يلي:

١- إذا ذُكر أحد العلماء بفضيلة أمامهم أعرضوا عن سيرته إن أرادوا السلامة، وإلا أنكروا فضيلته ورموه بعكس ما اتصف به، وذلك لمرضٍ في قلوبهم يكتمون الحق بعد ما تبيَّن، وهذا خشية أن تثبت رئاسة أو مكانة لأحد.

٢- ينتقصون أهل العلم المخلصين الذين آتاهم الله رسوخاً في العلم، وسبقاً في العمل، ومحبة في قلوب الخلق، وعزة بينهم، فيسعى القاصرون عن بلوغ مراتبهم إلى انتقاصهم بإلصاق التهم بهم، واختلاق الأغاليط لهم، وتحريف كلامهم، فواعجباً ممن يجعل موضوع خطبة الجمعة قدحاً في بعض أهل العلم ويعين أسماءهم ويصفهم بالضلال والفسق، فيحوِّل الخطبة التي هي زاد روحي للمسلم

(١) المصدر السابق (١٣/٢).

إلى مجلس غيبة وشتم وافتراء، فأي مخطط هو يخدم؟ حين يجرِّح حملة الشرع ورموزه، ويُفقِد المسلمين الثقة بعلمائهم، فيعمِّق الفجوة بين العوام والعلماء مما يجعل الناس في شكٍ دائم وحيرةٍ مستمرة.

٣- أن الحسد يؤدي إلى القطيعة بين العلماء، وإذا ما انقطعوا لعب مروجو الفتن والشائعات دورهم بين العلماء، فيصل إلى كل عالم بواسطة شرار أتباعه ما يُنسب إلى غيره من العلماء زوراً وبهتاناً، فيصدِّق أهل الفتنة دون أن يراجع في ذلك أخاه من أهل العلم، فيتكلم فيه بغير حق ويجرِّحه بغير علم، ويقدح فيه بغير حجة.

فعلى مَن يترك لنفسه العنان ولا يجاهدها أن يعلم أن الأمر كله لله، وأنه ما أُعطي أحد عطاءً من علم ودين ورياسة وشهرة إلا بإذن الله ﷻ، فليحترم قَدَرَ الله في عباده، وليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله ويبارك ويزيد، وليعلم أنه إن استمر على ذلك فهو في شقاء دائم وكمدٍ لا ينقطع.

المطلب الخامس: سوء الأدب وأزمة الخلق

من أقوى أسباب ظاهرة التجريح سوء أدب مَن يسيئون إلى العلماء، لأنهم أخذوا العلم أقوالًا وحروفاً تُنطق، ولم يأخذوه حدوداً وأركاناً تُطبَّق وتنفَّذ، حُمِّلوا العلم ولم يتحملوه، تعلموا القرآن ولم يتعلموا الإيمان، خالفوا هدي أئمة الإسلام، وأصحاب سيد الأنام فعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، «فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا»[١].

(١) **صحيح**: رواه الإمام ابن ماجه في السنن، باب في الإيمان (١/ ٢٣) رقم (٦١)، وقال البوصيري في الزوائد: إسناد هذا الحديث صحيح. رجاله ثقات. (حزاورة) جمع الحزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم.

وقد كتب حكيم إلى حكيم: "قد أوتيت علماً، فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم"(١).

فيجب على أهل العلم أن يعلِّموا الإيمان أولًا؛ لينشأ الفتيان على التقوى والديانة والخشية والصيانة، فيراقبوا الله ﷻ في كل قول وعمل فيستعظمون الصغائر ويجتنبون الكبائر، كما على أهل العلم أن يربوا تلاميذهم على الأدب الرفيع والخلق القويم، وذلك بذكر آداب العالم والمتعلم في عموم المجالس والدروس، وعرض النماذج المشرفة لعلمائنا السابقين في أدبهم ودلِّهم مع مشائخهم وتلاميذهم ليكونوا أسوة وقدوة لطالب العلم وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: "ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى؛ ولكثرة دعائه له قال له ابنه عبد الله: أيَّ رجلٍ كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد: يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف وكان أحمد رحمه الله: يقول ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة"(٢).

فهذا مثال الطالب مع شيخه وقرينه، علم فضله عليه، فأراد أن يعطيه بعض حقه، فلازم الدعاء له في صلاته حيث تُرجى الإجابة، فاتضح هنا حرص الداعي ومكانة المدعو له، وأخبر به تعليماً وتربية لمن يسمعه، فسمعه ابنه فعلم مكانة شيخه لديه فسأله عنه، فجاء الجواب

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٥، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

(٢) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٥.

مشبِّهاً مكانته في العلم بمكانة الشمس للدنيا والعافية للناس، فكأنه لا يُستغنى عنه كما لا يُستغنى عنهما.

وقال الشافعي رحمه الله عن شيخه مالك : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمنَّ عليَّ من مالك، وقال عنه: رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان ويقال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ (١).

فيصف شيخه هذا الوصف المشتمل على الإجلال والإكرام يقر فيه بأنه أعظم الناس منة عليه؛ فبه بلغ ما بلغ من العلم والفهم، كما أشار في الخبر الآخر إلى كرمه وجوده حيث منحه الفرسان كلها، وبين عظيم إجلاله وتوقيره لرسول الله ﷺ، فهلَّا أجللنا علماءنا! واعترفنا بحقوقهم علينا! وأدينا حقوقهم من الدعاء والبر! كما لمسنا من إجلال السلف الصالح لعلمائهم.

وهذا مالك رحمه الله سُئل: هل رأيت أبا حنيفة وناظرته؟ فقال: نعم رأيت رجلا لو نظر إلى هذه السارية وهي من حجارة، فقال إنها من ذهب لقام بحجته، وقال عنه الشافعي رحمه الله: من أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك، ومن أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة، ومن أراد التفسير فعليه بمقاتل

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٧،٢٨.

بن سليمان[١]، وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة[٢].

قال عبد الله بن المبارك[٣] في ثنائه على أبي حنيفة رحمهما الله:

وجدت أبا حنيفة كل يوم ... يزيد نبالة ويزيد خيرًا
وينطق بالصواب ويصطفيه ... إذا ما قال أهل الجور جورًا
يقايس من يقايسه بلب ... فمن ذا تعلمون له نظيرًا
كفانا موت حماد وكانت ... مصيبته لنا أمرًا كبيرًا
فرد شماتة الأعداء عنا ... وأفشى بعده علما كثيرا[٤]

فهذا مثال عظيم من ثناء العلماء على قرنائهم ومعاصريهم، فابن المبارك مع جلالته في العلم والفقه يُثني على أبي حنيفة وينشد فيه هذا الشعر، وهذا لعظيم إنصافه، وجميل أدبه، وتمام إخلاصه، وهذا هو الواجب على علماء الإسلام؛ لأنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء إخوة لعلَّات، فالعلماء تبعٌ لهم، كما أنهم يتآخون بأخوة الإيمان كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٥]، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال

(١) مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي، أبو الحسن: مفسر أصله من بلخ انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدّث بها. وتوفي بالبصرة سنة ١٥٠هـ. كان متروك الحديث من كتبه (التفسير الكبير). ينظر: الأعلام للزركلي (٧ / ٢١٨).

(٢) منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ج١ ص١٧٣، للإمام أبي زكريا يحيى بن إبراهيم الأزدي السلماسي، المحقق: محمود بن عبد الرحمن قدح، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي أبو عبد الرحمن: الحَافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الأسفار، حاجا ومجاهدا وتاجرا. وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفا من غزو الروم. ينظر: الأعلام للزركلي (٤ / ١١٥).

(٤) منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ج١ ص١٧٤.

(٥) سورة الحجرات: من الآية ١٠.

رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[1].

وهذا الإكرام والاحترام تعدى الأساتذة إلى الطلاب، كما ظهر من إكرام مالك لتلميذه الشافعي، كما أن الشافعي رحمه الله لم يمنع تتلمذُ أحمد عليه من أن يعترف له بالفضل والعلم بالسنة فكان يقول له: "أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني إن يكن كوفيا أو بصريا أو شاميا، أذهب إليه إذا كان صحيحا، وكان الشافعي حين يحدِّث عن أحمد لا يسمِّيه (تعظيما له) بل يقول: «حدثنا الثقة من أصحابنا أو أنبأنا الثقة أو أخبرنا الثقة"[2].

وعلى هذا فلو تربَّى طلائع الدعوة على هذا الأدب الرفيع مع مشائخهم وآبائهم وزملائهم ومن دونهم لأصبحوا نماذج مشرِّفة ومُثُلاً صالحة لطلاب العلم، يُجِلُّون أساتذتهم ويقدرونهم، عكس ما نرى في زماننا من تشهير بعض طلاب العلم بمشايخهم بعد أن تربوا على موائدهم ونهلوا من علمهم واستنفذوا طاقاتهم، ثم إذ بهم يقدحون ذواتهم وينتقصون أشخاصهم لقضايا فرعية وأغراض شخصية، فأنكروا الجميل وجحدوا المعروف وأهانوا أهله جزاء إكرامهم.

فيجب على أهل العلم أن يتجنبوا كل لفظ مشين لا يليق بحملة الشرع وورثة النبوة، وأن يجردوا مجالسهم من كل قبيح، وأن ينصحوا كل مبتدر بغيبة وهمز ولمز بالإقلاع عن ذلك والتوبة منه، وضرورة احترام

(١) رواه الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٨/ ١٠) (٦٠١١).

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام ج١ ص١٣٢، د. طه جابر فياض العلواني، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، عام النشر:١٩٨٧م.

العلماء والتماس العذر لهم إن بدر من أحدهم شيء غير مرضيٍّ أو ثبتت عنه مخالفة.

ويلحق بسوء الخلق ما يقوم به مجرِّحو العلماء من تصيُّد الأخطاء وتتبع العورات وتحريف الكلم عن مواضعه، فيزهق وقته ويضيع عمره في متابعة النتاج الفكري والعلمي لأحد العلماء لا بفرض النفع والنصح وإنما لتصيد الأخطاء وإظهار السوءات والعورات، وإن لم يجد خطأ افتعل الأخطاء بصرفه الألفاظ عن مقصود أصحابها، أو اجتزأ الكلام من سياقه.

فمن علمائنا القدامى من نعى هؤلاء الذين يقلبون الحقائق ويزيفون الواقع فالإمام أبو إسحاق الشاطبي[1] قد لقي من المبتدعة عنتاً وظلماً فأولوا أفعاله وأقواله إلى حيث يريدون، لتكون حجةً للقدح فيه فيقول رحمه الله: "فَتَارَةً نُسِبْتُ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الدُّعَاءَ لَا يَنْفَعُ وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ كَمَا يُعْزَى إِلَى بَعْضِ النَّاسِ، بِسَبَبِ أَنِّي لَمْ أَلْتَزِمِ الدُّعَاءَ بِهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَاةِ حَالَةَ الْإِمَامَةِ، وَتَارَةً أُضِيفَ إِلَيَّ الْقَوْلُ بِجَوَازِ الْقِيَامِ عَلَى الْأَئِمَّةِ، وَمَا أَضَافُوهُ إِلَّا مِنْ عَدَمِ ذِكْرِي لَهُمْ فِي الْخُطْبَةِ، وَتَارَةً حُمِلَ عَلَيَّ الْتِزَامُ الْحَرَجِ وَالتَّنَطُّعُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنِّي الْتَزَمْتُ فِي التَّكْلِيفِ وَالْفُتْيَا الْحَمْلَ عَلَى مَشْهُورِ الْمَذْهَبِ الْمُلْتَزَمِ لَا أَتَعَدَّاهُ، وَهُمْ يَتَعَدَّوْنَهُ وَيُفْتُونَ بِمَا يُسَهِّلُ عَلَى السَّائِلِ وَيُوَافِقُ هَوَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَاذًّا، وَتَارَةً نُسِبْتُ إِلَى مُعَادَاةِ

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي أصولي حافظ. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. من كتبه (الموافقات في أصول الفقه) توفي سنة ٧٩٠هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (١/ ٧٥).

أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنِّي عَادَيْتُ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلسُّنَّةِ الْمُنْتَصِبِينَ بِزَعْمِهِمْ لِهِدَايَةِ الْخَلْقِ"[1].

فاتضح بنقل كلام الشاطبي رحمه الله ما ادَّعاه خصومه من أهل البدعة والضلال، فيحملون الفعل غير ما يحتمل، ولا يرعون حقه وحرمته بل يصفونه بما هو بعيد عنه وبرئ منه، وهكذا يفعل دعاة الفتنة في العصر الحالي يتقولون على أهل العلم، ويخبرون عنهم ما هم براء منه، وهذا ناشئ عن سوء أخلاقهم وقبيح ظنهم، وسوف يُجازَون من جنس أعمالهم، فيُظهر اللهُ عوراتهم ويفضحهم على رؤوس الخلق فعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ الله ﷺ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ» قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى البَيْتِ أَوْ إِلَى الكَعْبَةِ فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ»[2].

(١) الاعتصام ص٣٥،٣٦، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢) **حسن صحيح:** أخرجه الإمام الترمذي في سننه ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٣٧٨/٤) رقم (٢٠٣٢) وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد، وقال الألباني: حسن صحيح، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في حفظ المسلم سر أخيه (٥٠٣/١٣) رقم (١٠٦٨٢).

المطلب السادس: غياب العالم القدوة عن القيام بدوره

إذا كانت عوامل التجريح السالفة الذكر تعود إلى القادحين، فإن بعض هذه العوامل تعود إلى فئة من حملة العلم، فمع وجود العلماء الربانيين، إلا أن هناك من ينتسب إلى العلم لا يمثل العالم القدوة الذي يرمق الناسُ حركاتِهِ وسكناتِهِ للأخذ عنه والتأسي به، فبعضهم لا يُلقي بالاً لما هو خليق به أن يؤديه، والبعض الآخر قد انكَبَّ على جمع الدنيا واستغرق في تحصيلها؛ فترك رسالته وجعل ميدانه شاغراً، فخلفه غيرُ الكُفء فجعل يخبِط فيما لا يُدرك، ويهرف بما لا يعرف، لا يعرف لعالمٍ حقه ولا لذي فضلٍ فضله، فهو عن العالَم منزوٍ، قد حبس نفسه عن الناس، وكتم علمه عنهم، فاتُّهِم بالقصور والعي، وربما انخرط في بعض المناكر، ووضع نفسه موضع الشبهات، فتمتد إليه الألسنة، وسبب ذلك يرجع إما إلى تأخر أهل العلم وعكوفهم، أو إلى تسيبهم وانحرافهم فكان عاملاً من عوامل تجريحهم.

فالعالم يُجَلُّ بموافقة فعلِهِ لقولِهِ ويؤاخذُ بجريرةِ مخالفةِ فعلِهِ لقوله، ويُتهم بهذه المخالفة، وإلى هذا المعنى أشار الصحابي الجليل ابن مسعود ﷺ بقوله: «إِنَّ النَّاسَ أَحْسَنُوا الْقَوْلَ كُلُّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ حَظَّهُ , وَمَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ فَإِنَّمَا يُوَبِّخُ نَفْسَهُ»(١).

كما أن سكوت كبار العلماء عن تصحيح الخطأ يكون سببًا في جرأة الصغار على النقد المفرِط، فمن العلماء مَن تزل قدمه ويضل فهمه في بعض المسائل، وهذا أمر يعتري كل إنسان؛ لأن الإنسان مقهور بالقصور والعجز، وكلٌ يؤخذ من قوله ويُرد إلا الأنبياء المعصومين،

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٧).

فيجب علينا ألا نظن بأحد من العلماء العصمة مهما بلغ شأوه وشأنه، فإن أخطأ ينبغي أن نقوِّمه مع إحساننا الظن به، فعدم قيام بعض العلماء بالتصحيح والتقويم هو ما يؤدي إلى تفوّه صغار الطلاب بما لا يليق في شأن علمائهم، فلو نطق الأكابر لسكت الأصاغر.

فطالب العلم المبتدئ إذا سمع من مشايخه الآداب والسنن والأحكام والشروط ثم لم يراها واقعاً عملياً في حياة علمائه فإنه يصطدم إبَّان هذه المفارقات، ويصطدم بالانفصام النكد، حيث يسمع قولاً ولا يجد عملاً، فيضيق صدره بأعمالهم، وينطلق لسانه في أعراضهم، لحداثة سنه، وقلة علمه، وسوء فهمه، ولكن إذا وجد أحداثُ الطلبة قدوةً في أساتذتهم، تعمق احترامهم في أنفسهم، وعظمت مكانتهم عندهم، واقتدوا بهم، فالتعليم بالقدوة أعمق أثراً وأعز نفعاً من النصيحة والموعظة المجردة فقد أُثر عن المأمون[1] الخليفة العباسي قوله: «نَحْنُ إِلَى أَنْ نُوعَظَ بِالْأَعْمَالِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى أَنْ نُوعَظَ بِالْأَقْوَالِ»[2].

ولا عجب من كون بعض أهل العلم قد جاوز الصواب وابتعد عن الطريق السوي فقد أخبر السلف الصالح عن وجود هذا النوع من العلماء قال عَلِيٌّ ﷺ: «يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ، اعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَلِمَ ثُمَّ عَمِلَ وَوَافَقَ عَمَلُهُ عِلْمَهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ تُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ وَيُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، يَقْعُدُونَ حَلَقًا فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ

(١) المأْمُون العَبَّاسي (١٧٠ – ٢١٨ هـ) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس: سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه، أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، وكانت محنة خلق القرآن في السنة الأخيرة من حياته. ينظر: الأعلام للزركلي (٤/ ١٤٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٧).

بَعْضًا حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لَا تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

المطلب السابع: التعامي عن المشكلات الأصيلة للأمة الإسلامية

أرى أن من أسباب القدح في العلماء الانشغال بالأمور الفرعية التي لا يضر الجهل بها، والتعامي عن الأمور الأصيلة التي لا يسع المسلم جهلُها، وافتعال مشكلاتٍ حقيرة، والتغافل عن مشكلات الأمة الخطيرة، فينشأ المنتسبون إلى الدعوة على هذه الثقافة، ويربون الطلائع عليها، "فبدلًا من أن يوجهوا الشباب المسلم إلى العمل المناسب لخدمة دينهم، فإنهم يديرونهم في حلقة مفرَّغة من القضايا التي أوجدها الفراغ"(٢).

فهذه القضايا الفرعية إذا كثر الخوض فيها تحولت إلى مسائل مصيرية؛ لأجلها يكون الولاء والبراء عند الأغمار والأحداث، فربما رأى بعض الشباب عالماً قد حلق لحيته حينها يتبرأ منه ويعاديه، ويقدح فيه، وإطلاقها يدور بين الوجوب والندب، فلا يستلزم الأمر هذا التضخيم والتشنيع، بل إن هذا العالم ربما كان معذوراً في أمر لا نعلمه، وهو في كل ذلك أمره إلى الله ﷻ الذي يتولى حسابه.

يتحدث أحد علماء المسلمين عن موقف مع أحد الشباب حيث "رآه يتكلم بحقد عن أحد الدعاة فقال له: ما تنقم ؟ قال: ما يعرف السنة ! ألا ترى إسباله لثوبه؟ وما يحسن الصلاة ! يقعد وقدماه على هيئة كذا !! قلتُ: تكره مسلماً وتتمنى له الشر لهذه الصغائر؟ إن تضخيم هذه الأمور دليل مرض نفسي، ومعصية قلبك أبعد عن المغفرة من اضطراب مظهره،

(١) المصدر السابق (١/ ٦٩٧).

(٢) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص٥٦، الشيخ/ محمد الغزالي، الناشر: مجلة الأمة مطابع الدوحة الحديثة ١٤٠٠٢هـ.

ولعله أقرب إلى الله منك..! وعلى هذا النحو ترى رجلًا يتبع مذهبًا في العقيدة، أو في فقه الفروع، فيحسب أن اهتداءه إلى هذا المعنى، أو إلى هذا المسلك، قد جمع له المجد من أطرافه، فلا حرج عليه أن يتصرف كيف يشاء، وكأنما قال الله له: افعل ما شئت فقد غفرت لك !! "[1].

وما فعله هذا الشاب إنما هو ترسُّبٌ لما نما عليه وترعرع من جعل المكروه كبيرة من الكبائر، ووضع الهيئة في الصلاة موضع الركن، فإذا رأى مخالفة لما تربَّى عليه، اشتاط غضباً، وتميَّز غيظًا فأطلق لسانه في عرض الدعاة والعلماء، وأبغضهم بقلبه وحقد عليهم، فارتكب هو الكبائر حيث أراد إنكار الصغائر، وهو مع ذلك يرى الناس هلكى وهو في نجاة، يرى الناس مخطئين وهو مصيب.

كما أن هناك من يشغل ذهن الطلاب بأمور لا تستحق، تشبثاً وتمسكاً بآراء واجتهادات فقهية لا تستند إلى دليل صريح، ويشهد لهذا موقف آخر مع أحد العلماء حيث يقول: "كنت إذا درست لطالبات الجامعة بدأتُ محاضرتي بإلقاء السلام، ومكثت على ذلك ما شاء الله حتى قالت لي طالبة ذات يوم: إن الأستاذ الذي يعلمنا السنة أفهمنا أنَّ إلقاء السلام على النساء حرام! فقلت مسرعاً: هذا خطأ فإني قرأت في السنن أن النبي ﷺ كان يلقي السلام على النساء، وقد ذكر البخاري في صحيحه باباً لسلام الرجال على النساء والنساء على الرجال يفيد إباحة ذلك، وعلى أية حال فسألقى زميلي وأتثبت منه فلعلي أنا مخطئ ! والتقيت بالزميل وهو رجل غيور صالح دارس لعلوم الحديث، وقصصت عليه ما حدث، فقال: نعم ذكرت للطالبات أن السلام عليهن لا يجوز!

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص٥٣،٥٤.

وما تسوقه أنت في باب الجواز من أحاديث تبيح ذلك إنما هو خصوصية للنبي ﷺ ! أو عند أمن الفتنة! أو إذا كانت النساءُ عجائزَ، أما إلقاء السلام على الفتيات الجميلات فلا ... قلت: دعوى الخصوصية مرفوضة، والسياق عند البخاري وغيره يبيح لنا إلقاء السلام دون تصفُّح للوجوه هل هي جميلة أم لا!! ولا أدري من أين أتى الشارح بهذا التقسيم؟ قال: لابد من احترام قول الشارح !!" (١).

فهؤلاء البنات لو انصبَّ الحديث معهن على ما يحتجن إليه من الآداب والعلوم، لكان أجدى وأنفع دون تشويش لفكرهن وشغلٍ له بما اختلف فيه، ونرى هنا حكمة هذا الداعية حيث إنه أحسن الظن بزميله ولم يتهمه قبل أن يتثبت منه، بل اتهم نفسه بمظنة الخطأ، ولكنه راجع زميله فوجده متشبثاً بقول الشارح وليس بنص الشارع، فأنهى الحديث معه بخير حال.

فمن الحكمة ألا نطرق أذهان الناس لأمور فرعية وهم يجهلون الأمور الأصيلة، كما لا ينبغي تكليف المدعوين بالنوافل، وهم متساهلون في ترك الفرائض، بل لابد من التدرج في سلم الأولويات فلا ينشغل الدعاة بأمور وقضايا عفا عليها الزمان، ويتعامون عن القضايا الكائنة والمشكلات الراهنة، بل عليهم أن يقترحوا الحلول الشافية من الكتاب والسنة لكل مشكلة قائمة، وأن يقدِّموا العلاج الناجح لكل مرض اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، وأن ينشروا سبل الوقاية من كل داء.

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه ص٨٤،٨٥، الشيخ محمد الغزالي، نشر: مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة – عمان – الأردن، ط الأولى ١٩٨٤م.

المطلب الثامن: انعدام فقه الخلاف

إن من عوامل ذيوع وانتشار ظاهرة تجريح علماء الأمة هو انعدام فقه الخلاف، فتحجُّر الأُفُق وضيقُ العَطَن يجعل المرء لا يرى إلا رأيه ولا يثق إلا بشيخه، فلا يكون ميزانه هو الدليل، ولكن سنده هو التقليد لما نشأ عليه واكتسبه، فلو تفقَّه وفَقِهَ المجرِّح وعلم الإجماع والخلاف لما خطَّأ من خالفه وسلك غير سبيله وما كان لسان حاله "إن اتبعتنا ومدحتنا فأنت شيخنا وإن خالفتنا وانتقدتنا فأنت خصمنا".

فإذا رام أحد العلماء نقد بعض إخوانه من أهل العلم، فعليه أن ينظر أولاً في المسألة التي ينقدها، فإن كانت مسألة خلافية، فليعلم إلى أيِّ نوع من أنواع الاختلاف تُنسب هذه المسألة؟

فهناك اختلاف التنوع "والذي يكون فيه كل واحد من المختلفين مصيبًا فيه بلا تردد، لكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغيٌ كما في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]، وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار فقطع قوم وترك آخرون، وكما في قوله ﷻ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2] فخصَّ سليمان بالفهم، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلَّى العصر في وقتها، ولمن

(١) سورة الحشر: من الآية ٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٧٨-٧٩.

أخَّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة، وكما في قوله ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»" (١) (٢).

فإذا كان الاختلاف من هذا القبيل، فهو اختلاف سائغٌ وسع المتقدمين، فينبغي أن يسع المتأخرين، وبالتالي فلا يجوز لأحد أن ينكر على غيره ما دام الاختلاف سائغا، عملاً بالقاعدة الفقهية : "لَا يُنْكَرُ الْمُخْتَلَفُ فِيهِ وَإِنَّمَا يُنْكَرُ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ"(٣).

وإن كان من النوع الآخر وهو اختلاف التضاد، فهو المذموم شرعاً، والذي تُحمد فيه إحدى الطائفتين، وتُذم الأخرى كما في قوله: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾(٤) حمدٌ لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون وذمٌ للأخرى(٥).

فمعظم القضايا التي يحتجُّ بها أهل التجريح، وينكرون فيها على العلماء بأسلوب الانتقاص والطعن هي من النوع الأول، وهو اختلاف التنوع وذلك لأنهم لا يعترفون بما عليه العلماء من الحق، ولا ينصفونهم، ولا يحترمون آرائهم، بل يضربوا بها عُرض الحائط.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه الإمام البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٠/٩) ح(٧٣٥٢)، وأخرجه الإمام مسلم، كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب (١٣٤٢/٣) ح (١٧١٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ص١٥٢-١٥٤، للإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٣) الأشباه والنظائر (ص: ١٥٨)، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٥٣.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ص١٥٤-١٥٥.

فعلى من ينكر على غيره أن ينظر في المسألة التي يناقشها فإن كانت خلافية، واختلافها اختلاف تنوع فليس له أن ينكر، وإن كانت من النوع الثاني وكان المخالف قد خالف أمراً متفقاً عليه فله الإنكار، مع مراعاة أدب الاختلاف، وأن يكون الإنكار بحكمة وبالمعروف، وأن يسقط نكرانه على الرأي وليس الشخص، وأن يرد الحجة بالحجة ويناقش الرأي بالرأي.

وسبب انعدام أدب الخلاف عند كثير من أبناء الصحوة الإسلامية يرجع في نظري إلى عدة أمور:

١- تربية النشء على أن الصواب واحد في الأمور كلها، في القضايا الأصولية والفرعية، وكثير من الشباب بلا دراية، يُغرَّرُ بهم فيقدِّسون كلام شيخهم الذي لا يرى إلا نفسه ومن وافقه، ولا يعترف بالحق لمن خالفه.

٢- قلة العلم وضيق المعرفة الذي بُليت به الأمة الإسلامية؛ بسبب إقبال الكثير على المادة واهتمامهم بالعلوم الدنيوية، وغفلتهم عن العلوم الأخروية، فلا نجد إقبالا على محافل العلم الشرعي، بل زهد كثير من المسلمين في أمور دينهم، واكتفوا بالزاد القليل من العلم الموروث والمعروف بديهة، فإذا ما تلقَّى أحد الناس حكماً شرعياً خلافياً من وجه واحد صار هو الصواب لديه، وما عداه خطأ وضلال، فبهذا يكون التطاول من هؤلاء الأقزام على أكابر العلماء إذا ما قالوا حكماً غير ما عرفوا، وعملوا بدليلٍ سوى ما سمعوا وقرأوا.

٣- الاقتصار في التلقي والتعلم على المصادر والكتب ذات الاتجاه الواحد والفكر الموجَّه، والبعد عن المصادر والكتب التي تتناول سائر المذاهب بأدلتها المختلفة، مع ترجيح ما قوَّاه الدليل وتراءى للباحث،

فيؤدي هذا إلى استنكار الآراء المخالفة لما اطَّلع عليه، ثم يتطرق الأمر إلى الطعن والقدح فيمن أتى بما ليس لهم به عهد.

وقد ضجَّ أئمة الإسلام وتأذوا من سوء فهم مخالفيهم، واتهامهم لهم، وأخذهم بالظن السيء فهذا هو حال الْإِمَامُ الشَّهِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بَطَّةَ[١] الْحَافِظِ مَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ إِذْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: "عَجِبْتُ مِنْ حَالِي فِي سَفَرِي وَحَضَرِي مَعَ الْأَقْرَبِينَ مِنِّي وَالْأَبْعَدِينَ، وَالْعَارِفِينَ وَالْمُنْكِرِينَ، فَإِنِّي وَجَدْتُ بِمَكَّةَ وَخُرَاسَانَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَمَاكِنِ أَكْثَرَ مَنْ لَقِيتُ بِهَا مُوَافِقًا أَوْ مُخَالِفًا، دَعَانِي إِلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى مَا يَقُولُهُ، وَتَصْدِيقِ قَوْلِهِ، وَالشَّهَادَةِ لَهُ، فَإِنْ كُنْتُ صَدَّقْتُ فِيمَا يَقُولُ وَأَجَزْتُ لَهُ ذَلِكَ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ هَذَا الزَّمَانِ; سَمَّانِي مُوَافِقًا، وَإِنْ وَقَفْتُ فِي حَرْفٍ مِنْ قَوْلِهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ فِعْلِهِ سَمَّانِي مُخَالِفًا، وَإِنْ ذَكَرْتُ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا أَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَارِدٌ، سَمَّانِي خَارِجِيًّا، وَإِنْ قَرَأْتُ عَلَيْهِ حَدِيثًا فِي التَّوْحِيدِ، سَمَّانِي مُشَبِّهًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْإِيمَانِ سَمَّانِي مُرْجِئًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَعْمَالِ، سَمَّانِي قَدَرِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْرِفَةِ سَمَّانِي كَرَامِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، سَمَّانِي نَاصِبِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي فَضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ سَمَّانِي رَافِضِيًّا، وَإِنْ سَكَتُّ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ فَلَمْ أُجِبْ فِيهِمَا إِلَّا بِهِمَا، سَمَّانِي ظَاهِرِيًّا، وَإِنْ أَجَبْتُ بِغَيْرِهِمَا، سَمَّانِي بَاطِنِيًّا، وَإِنْ أَجَبْتُ بِتَأْوِيلٍ، سَمَّانِي أَشْعَرِيًّا، وَإِنْ جَحَدْتُهُمَا، سَمَّانِي مُعْتَزِلِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي السُّنَنِ مِثْلَ الْقِرَاءَةِ، سَمَّانِي شَفْعَوِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي الْقُنُوتِ سَمَّانِي حَنَفِيًّا، وَإِنْ كَانَ فِي الْقُرْآنِ، سَمَّانِي

(١) ابن بَطَّة (٣٠٤– ٣٨٧ هـ) عبيد الله بن محمد، أبو عبد الله العكبريّ: عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة. من أهل عكبرا (بلدة بالعراق) مولدا ووفاة رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها في طلب الحديث، ثم لزم بيته أربعين سنة، فصنف كتبه وهي تزيد على مئة، منها "الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة". ينظر: الأعلام للزركلي (٤/ ١٩٧).

حَنْبَلِيًّا، وَإِنْ ذَكَرْتُ رُجْحَانَ مَا ذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ إِذْ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ وَالْحَدِيثِ مُحَابَاةٌ قَالُوا: طَعَنَ فِي تَزْكِيَتِهِمْ. ثُمَّ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يُسَمُّونَنِي فِيمَا يَقْرَءُونَ عَلَيَّ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَسَامِي، وَمَهْمَا وَافَقْتُ بَعْضَهُمْ; عَادَانِي غَيْرُهُ، وَإِنْ دَاهَنْتُ جَمَاعَتَهُمْ، أَسْخَطْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَنْ يُغْنُوا عَنِّي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. وَإِنِّي مُسْتَمْسِكٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[1].

فهذا هو حال العالم الرباني مع أهل زمانه الجاهلين بالخلاف الذين لا يرون إلا أنفسهم ومن وافقهم، وأما من خالفهم ونطق بما أدَّاه إليه اجتهاده فلا يرعون له حرمة ولا رحماً، فيجب عليه ألا يلتفت إلى مسمياتهم وأن يراقب ربه ويرضيه وحده.

(١) الاعتصام ص٣٥،٣٦.

المبحث الثاني

الآثار السلبية لظاهرة التجريح على الدعوة الإسلامية

لا شك أن تجريح العلماء وقدحهم له مضار كثيرة وأخطار كبيرة تؤثر سلبًا على الفرد والمجتمع، لأن الطاعنين في العلماء، يهدمون بعملهم حصن الأمة، ويقضون على حراس الشرع، ويطعنون في ورثة النبوة، ويتَّهمون حملة الوحي، فتنشأ عن ذلك جملة من المضار تتضح من خلال هذه المطالب:

المطلب الأول: توسيع جراح الأمة

إن مستبيح أعراض العلماء مِعْوَلُ هدمٍ، وسببُ شرٍ، ورأسُ فتنةٍ، يصطنع المشكلات، ويعمق الجراح، فبدلاً من أن يجاهد وينافح لإعزاز أمة الإسلام، وإخراجها من كبواتها، التي سعى أعداؤها لاختلاقها على مر الأجيال والعصور، يقوم بشغل علماء الأمة عن المضي قدماً نحو حل الأزمات، فيطنعهم بخناجر مسمومة توقف حركتهم وتعكر صفوهم، فمنهم من يقعد متأثراً بألم الجُرح وعلة النفس، ومنهم من يمشي في طريقه مكابداً ألم جُرحه وعلة نفسه، ولكنه مع مجاهدته ومكابدته لا يجد قبولاً من الناس؛ لأنه أُسقط في نظرهم وطُعن في شخصه أمامهم، فيقل نشاطه، فلا تجد الأمة من يداوي جراحها ويسكِّن آلامها، فيزداد الخرق، ويتسع الفتق، ويسوء حال الأمة، وتموت عُرى الإسلام واحدة تلو الأخرى، لضعف الأيدي الدافعة وقوة الأيدي الباطشة.

يُضاف إلى هذا أنهم يعملون على تشتت الأمة وتفرقها، فيقسِّمون المسلمين فرقاً وجماعات وفق اعتبارات وضعوها، وحيثيات ابتدعوها، فمنهم من يقسِّم المسلمين باعتبار مواقفهم السياسية من حدثٍ معين أو واقعة محددة تختلف آراء الناس حولها، بحسب مشاربهم واهتماماتهم

وثقافتهم ومعرفتهم، ومن الناس من لا معرفة له إطلاقاً بما يقصدون ويرومون، ومنهم من يقسِّم الناس باعتبار مظهر بعينه يقولون: هؤلاء ملتزمون وغيرهم مضيِّعون، أو هؤلاء أهل السنة وغيرهم أهل البدعة ومستندهم أمر شكلي مباح شرعاً لا يضير من خالفه، ومنهم من يقسِّم الناس تبعاً لقضية خلافية في الفروع كقنوت الصبح مثلاً فيدَّعي أن هؤلاء أهل الأثر وغيرهم ليسوا على الأثر.

كما أن تجريح العلماء يجعل الناس أوزاعاً وأشتاتاً، إذ يجعل بعض الناس يبتعدون عن أحد العلماء لأنه ليس ثقة في نظرهم، بعكس مَن لم يلتفت للقدح والطعن فيه، فيتشبث باتباعه والاقتداء به، وهكذا مع غيره من العلماء فيؤدي هذا إلى أن يُنسب بعض الناس لبعض العلماء يوالونهم ويسمعون إليهم وحدهم دون غيرهم، فيحدث بين المسلمين الشتات، وتتعدد الاتجاهات والمذاهب والجماعات، حتى يصبح لكل عالم طائفة تقول بقوله وتتعصب له، ولا تعرف غيره من علماء الأمة، وهذا من شأنه أن يقضي على الأمة الإسلامية فلا يتوحد صفها ولا تجتمع كلمتها والله ﷻ يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾**(١)، كما أمر الله ﷻ بالاجتماع ونهى عن الفرقة في مواضع من كتابه فقال ﷻ: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾**(٢)، وحذَّر من التشبه بمن تفرَّقوا واختلفوا فقال ﷻ: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**(٣).

(١) سورة الصف: آية ٤.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٠٥.

فالأمة الإسلامية حالها يندى له الجبين ويأسى له المسلم الغيور "حروب دائمة وغزو واحتلال لبعضها، واستنزاف لجميع مواردها الاقتصادية، وجعلها دول هامشية لا حول ولا قوة لها، تتحكم فيها قوى الشر تسير أمورها بأسلوبها ومنهجها حتى تقضي على هويتها وقدرتها، ويرجع هذا إلى تشتت هذه الأمة إلى دويلات صغيرة كل منها في واد، ينتهجون نهجاً وأسلوباً ونظاماً بعيداً كل البعد عن النهج الإسلامي، والذي يدعوا إلى الوحدة لا التفرق، يدعوا إلى القوة لا الضعف"(١).

فالأمة الإسلامية أُرهقت بما توالى عليها من هزائم ونوائب، أضناها العدو الخارجي، فينبغي أن يداوي أبناؤها جراحها لا أن يكونوا عوناً عليها، بنثرهم بذور التفرق والتشرذم بين أبنائها، وكونهم عقبة كؤوداً أمام صلابتها واتحادها، فتصبح فريسة نائمة سهلة المنال لدى أعدائها.

المطلب الثاني: إلغاء الثقة في علماء الأمة

إن العلماء هم حصن الدفاع عن الأمة، وهم مرجع المسلمين عند الاختلاف، فقد أمر الله بضرورة الرجوع إليهم وعرض المختلف فيهم عليهم فقال ﷻ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**(٢)، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكةً؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم"(٣)،

(١) وحدة الأمة الإسلامية واجب شرعي ص٤، د. إسماعيل شلبي، بدون تاريخ.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) (٢٩٢/٥)، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى– ١٤١٩هـ.

وقال الله ﷻ: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾**(١). قال الإمام الطبري رحمه الله :"أولي الأمر" أي: أصحاب الفقه في الدين والعقل"(٢).

وعلى هذا فإن الطاعن في علماء الأمة يهوي بالأمة إلى الحضيض، ويجعل الناس أُسارى للخرافات والأوهام، فاقدين للنور الذي يهديهم سبل الهدى، ويجنِّبهم حياض الردى، كما أن تغييب العلماء عن واقع المسلمين يعمل على تضليلهم وتلبيس الأمور عليهم، فإذا أُثيرت شبهة؛ عجزوا عن تفنيدها لحاجتهم إلى الراسخين في العلم الذابِّين عن الإسلام كل ما نُسب إليه زوراً وبهتاناً، ولكن أين هؤلاء العلماء بعد أن أُلغيت الثقة فيهم؟ وارتاب الناس منهم بفعل المرذولين المخذولين المنتقصين من شأن أهل العلم المخلصين.

وقد نبَّه على عظم مكانة العلماء وخطر موقعهم غير واحد من السلف الصالح فقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الآجري(٣): «فَمَا ظَنُّكُمْ . رَحِمَكُمُ اللَّهُ . بِطَرِيقٍ فِيهِ آفَاتٌ كَثِيرَةٌ , وَيَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى سُلُوكِهِ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ, فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِصْبَاحٌ وَإِلَّا تَحَيَّرُوا, فَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُمْ فِيهِ مَصَابِيحَ تُضِيءُ لَهُمْ, فَسَلَكُوهُ عَلَى السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ, ثُمَّ جَاءَتْ طَبَقَاتٌ مِنَ النَّاسِ لَابُدَّ لَهُمْ مِنَ السُّلُوكِ فِيهِ, فَسَلَكُوا, فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ, إِذْ طُفِئَتِ الْمَصَابِيحُ, فَبَقُوا فِي

(١) سورة النساء: ٨٣.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٥٧٢/٨) بتصرف يسير، للإمام محمد بن جرير الآملي، أبي جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري: فقيه شافعيّ محدث. ولد بآجر (من قرى بغداد)، وحدث ببغداد، ثم انتقل إلى مكة، فتنسك، وتوفي فيها سنة ٣٦٠هـ. من تصانيفه (أخبار عمر بن عبد العزيز). ينظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٩٧).

الظُّلْمَةِ, فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِمْ؟ هَكَذَا الْعُلَمَاءُ فِي النَّاسِ لَا يَعْلَمُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَيْفَ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ, وَكَيْفَ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ, وَلَا كَيْفَ يُعْبَدُ اللَّهُ فِي جَمِيعِ مَا يَعْبُدُهُ بِهِ خَلْقُهُ, إِلَّا بِبَقَاءِ الْعُلَمَاءِ, فَإِذَا مَاتَ الْعُلَمَاءُ تَحَيَّرَ النَّاسُ, وَدَرَسَ الْعِلْمُ بِمَوْتِهِمْ, وَظَهَرَ الْجَهْلُ, فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ مُصِيبَةٌ مَا أَعْظَمَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟»(١).

إن محترف انتقاص العلماء بغير مبرر شرعي، إنما يسلك بعمله مسلك أهل البدع من الخوارج وغيرهم الذين جاهروا بطعن العلماء وإهدار حقوقهم ونكران فضلهم يشهد لهذا "أن وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ(٢) المعتزلي تكلَّم يَوْمًا فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ(٣): أَلَا تَسْمَعُونَ؟ مَا كَلَامُ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ – عِنْدَمَا تَسْمَعُونَ – إِلَّا خِرْقَةُ حَيْضٍ مُلْقَاةٌ، كما أَنَّ زَعِيمًا مِنْ زُعَمَاءِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ كَانَ يُرِيدُ تَفْضِيلَ علم الْكَلَامِ عَلَى علم الْفِقْهِ، فَكَانَ يَقُولُ: "إِنَّ عِلْمَ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ، جُمْلَتُهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ سَرَاوِيلِ امْرَأَةٍ"(٤).

ينتقص المبتدع بقوله هذا الفقهاء المشتغلين بتعليم الأحكام ومنها أحكام الحيض والنفاس، فالخوارج هم أصحاب هذا الفكر المشئوم إذ إنهم

---

(١) أخلاق العلماء ص٣٠، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.

(٢) واصِل بن عَطَاء الغزّال (٨٠ – ١٣١هـ): رأس الاعتزال سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ولد بالمدينة، ونشأ بالبصرة. وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينا، فتجنب الراء في خطابه، وضرب به المثل في ذلك له تصانيف، منها "أصناف المرجئة". ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/٤٦٤)، الأعلام للزركلي (٨/ ١٠٨-١٠٩).

(٣) عَمْرو بن عُبَيْد بن باب، أبو عثمان البصري (٨٠ – ١٤٤ هـ): شيخ المعتزلة في عصره، كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجا ثم شرطيا للحجاج في البصرة. واشتهر عمرو بعلمه وزهده. وفيه قال المنصور: "كلكم طالب صيد، غير عمرو بن عبيد"، من كتبه: " الرد على القدرية ". توفي بمران (بقرب مكة). ينظر: سير أعلام النبلاء (٦/١٠٤-١٠٥)، الأعلام للزركلي (٥/ ٨١).

(٤) الاعتصام للشاطبي ص٧٤١،٧٤٢.

ما كانوا يتحرجون في ذم وسب وتكفير من خالفهم، فأهل الجرح والتجريح يسلكون طريق الخوارج الذين نثروا بذور الفرقة والتشتت بين الأمة الإسلامية، فكانوا أول المنشقين عن خليفة المسلمين علي بن أبي طالب ﷺ وأساءوا إليه وآذوه وقتلوه غيلة، ويذكر الشاطبي رحمه الله من غريب الاعتقاد وسيء العمل وعطب الفهم فقال: إِنَّهُمْ ذَمُّوا مَنْ مَدَحَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَاتَّفَقَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَى مَدْحِهِمْ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَمَدَحُوا مَنِ اتَّفَقَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَى ذَمِّهِ كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجِمٍ[1] قَاتِلِ عَلِيٍّ ﷺ، وَصَوَّبُوا قَتْلَهُ إِيَّاهُ، وَقَالُوا: إِنَّ فِي شَأْنِهِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[2] وَأَمَّا الَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [3]، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَلِيٍّ ﷺ، وَكَذَبُوا – قَاتَلَهُمُ اللَّهُ – وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ[4] فِي مَدْحِهِ لِابْنِ مُلْجِمٍ:

يَـا ضَرْبَةً مِنْ تَقِـيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْـوَانًا

إِنِّي لَأَذْكُـرُهُ يَوْمًـا فَأَحْـسَبُهُ ... أَوْفَى الْبَـرِّيَّةِ عِنـدَ اللّـهِ مِيـزَانًا

(١) عبد الرحمن بن ملجم المرادي: فاتك ثائر، من أشداء الفرسان. أدرك الجاهلية، وهاجر في خلافة عمر، وقرأ على معاذ بن جبل. ثم شهد فتح مصر وسكنها. وكان من شيعة علي بن أبي طالب ﷺ وشهد معه صفين. ثم خرج عليه، وتآمر على قتله فقتله وهو خارج لصلاة الفجر ليلة (١٧ رمضان) ثم أُمسك به وأُمر بقتله بعدها. الأعلام للزركلي (٣/ ٣٣٩).

(٢) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٤.

(٤) عمران بن حطَّان بن ظبيان السدوسي، أبو سماك: كان قبل ذلك من رجال العلم والحديث، من أهل البصرة، ثم لحق بالخوارج الصفرية، فطلبه الحجاج، فهرب إلى الشام، فطلبه عبد الملك بن مروان، فرحل إلى عُمان، فكتب الحجاج إلى أهلها بالقبض عليه، فلجأ إلى قوم من الأزد، فمات عندهم إباضيا سنة ٨٤هـ .ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢١٤-٢١٥)، الأعلام للزركلي (٥/ ٧٠).

وَكَذَبَ – لَعَنَهُ اللَّهُ – فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَجْرِي عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، فَهُوَ مِنَ الْفِرَقِ الْمُخَالَفَةِ(١).

أوضح الإمام الشاطبي بعد أن ساق شنائع الخوارج أن من يمدح أهل الفسق والغواية ويذم أهل الصلاح والهداية فهو من الفرق المخالفة والمنشقة عن صراط الله ﷻ، فيظهر بهذا أن من يذم أهل العلم والتقوى إنما يخالف صراط الله المستقيم وسبيله القويم.

فهؤلاء الطاعنون في علماء الأمة مبتعدون عن منهج أهل السنة والجماعة الذين اتفقوا على أن: "عُلَمَاء السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ – أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْأَثَرِ، وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالنَّظَرِ – لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٢) فيجب على كلِّ مسلمٍ بعد موالاة الله ورسولِه موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهدى بهم في ظلمات البر والبحر. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيُون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه –: فلابد له في تركه من عذر.

(١) الاعتصام للشاطبي ص٧٤١.

(٢) سورة النساء: آية ١١٥.

وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه ﷺ أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم"[(١)].

ومع اتصاف مجرحي العلماء بمخالفة منهج أهل السنة والجماعة واتباعهم غير سبيل المؤمنين وسلوكهم منهج أهل البدع والضلال، فالعجيب أنهم يتَّهمون العلماء بالابتداع ويرمونه بالضلال حسداً من عند أنفسهم، ويدَّعون أنهم فقط أهل السنة وغيرهم مبتدعة لا خير فيهم.

يقوم هؤلاء المعتدون بإصدار الأحكام اعتمادًا على خيوط من الأوهام، فيحكمون بناءً على ظنون وخيالات، فلا يرون معروفاً ولا يقرون فضيلة، بل نظرهم إلى السيئات يجعلون الحصاة جبلاً واللمم كبيرة، وما يدرون أن مدار الحكم على الأشخاص إنما بغالب الحال وعموم الشأن قال ابن القيم رحمه الله: "ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالحة وآثار حسنة, وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور, بل مأجور لاجتهاده, فلا يجوز أن يُتبع فيها, ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين"[(٢)].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٧٤٠،٧٤١)، للإمام صدر الدين محمد ابن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٦١)، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.

فمن يبقى لأمة الإسلام إذا طُعن في علمائها؟ , سيبقى شباب أحداث, لا يحسنون التلاوة, ولا تستقيم لهم لغة, وليس لهم باع طويلة ولا قصيرة في كثير من علوم الشرع؟!.

المطلب الثالث: إعانة الأعداء في العداء

لقد عمل أعداء الإسلام، وبذلوا كل ما في وسعهم ليخلقوا جيلاً من المسلمين منقطع الصلة بدينه وكتاب ربه وسنة نبيه، ولا تزال جهود الإضلال تسعى سعيها لمحو الثقافة الإسلامية من بين المسلمين، وقد ظهر هذا جلياً إبَّان الاحتلال الذي أرَّق الشعوب الإسلامية، ومحا كثيرا من شعائر الإسلام ورسومه وحوَّل الثقافة الإسلامية العربية إلى ثقافة علمانية أوربية لدى كثير من أفراد الشعوب، كما قام بتجفيف منابع التعليم الإسلامي، ولم يبق منه إلا ما واجه ووقف صامداً متحدياً كل غزو فكري، وذلك كالأزهر الشريف الذي كان ولا يزال منبعاً صافياً للدين الإسلامي رغم ما تعرَّض من مِحَنٍ له عبر تاريخه الطويل.

فكانت نتيجة الغزو الفكري الذي تعرَّض له المسلمون أن أصبح بعضهم ضعيف الصلة بالإسلام، ولكن هذه المحاولات المتعددة من العدو لا تثبت أمام أهل العلم المخلصين ولا تؤتي ثمرتها إذا قام العلماء بواجب النصح والتوجيه، فسرعان ما يهتدي الضال وينيب الشارد إذا ما أصغى لأهل العلم، أو على الأقل يدرك خطأه ويعلم عيبه ليسعى بعدها في إصلاحه.

ولما كان للعلماء الأثر العظيم في رد كيد الكافرين، وإبطال سعيهم، وتضييع جهدهم، رأى أعداء الإسلام أن يصنعوا حداً حاجزاً، ويشيدوا سداً منيعاً بين المسلمين وعلمائهم، ليتمكنوا بعدها من تضليل الناس وإفسادهم، فراحوا يطعنون في علماء المسلمين بالباطل ويقدحون فيهم بالإفك

ويظهرونهم بصورة بشعة، وذلك لينفِّروا الناس من العلماء ويُحدثوا الشقة بينهم وبين من يهدونهم سواء الصراط، فحينها يحجم الناس عن الراسخين في العلم لأنهم ليسوا ثقات في اعتقادهم، ويقبلون على الرؤوس الجهال فيستفتونهم فيفتونهم بغير علم.

بعد أن اتضح ما يفعله القدح في العلماء من ترك الناس هملاً بلا راعٍ يرعاهم أو هادٍ يسوقهم، وأن هذه الوسيلة القبيحة استعملها أعداء الإسلام ليضللوا المسلمين، أرى أن من يقوم بتجريح العلماء والتشهير بهم لعَوَرٍ في فهمه وضيقٍ في عقله وقصورٍ في استيعابه، فإنه بعمله يعمِّق الفجوة بين عامة الأمة وعلمائها، ويُلغي ثقة الأمة في ناصحيها ومعلميها، فيكون معيناً لأعداء الإسلام في تشكيك المسلمين في علمائهم، فإذا نصحوهم أعرضوا عنهم، وإذا أرشدوهم اتهموهم، فيكون العلماء بين الناس وحولهم، ولا يتفقهون عليهم، ولا يسترشدون بهم، بل يزهدون فيهم، وإذا ضُربت الأمة في علمائها فأقم عليها مأتماً وعويلاً.

إن من يقوم بتجريح العلماء يؤدي إلى حرمان الناس من علمائهم وهم بين أظهرهم فيؤدي إلى قبض العلم وانتزاعه في وجود العلماء فيترك الناسُ العلماء الربانيين ويذهبون إلى من لا خلاق له من العلم فيستفتونهم فيفتونهم بغير علم فيَضلوا ويُضلوا فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1] فإذا غيِّب أهل العلم تصدر أهل الجهل المتعالمون الذين

(١) **متفق عليه:** رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (٣١/١) رقم (١٠٠)، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٠٥٨/٤) رقم (٢٦٧٣) واللفظ للبخاري.

لا يفقهون علماً ولا يحملون أدباً، فعجَّلوا بفعلهم ذهاب العلماء وقبض العلم.

المطلب الرابع: تحجيم انتشار الدعوة

علماء المسلمين هم القائمون بواجب البلاغ عن رسول الله ﷺ، المسارعون إلى امتثال أمره ﷺ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[(١)]، فهم المبلغون لرسالات الله، الموقعون عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، يتعبون لراحة الناس، ويسهرون لحياة الناس، لا يدَّخرون نصحاً ولا يبخلون بفتوى، ولا يفترون عن موعظة وإرشاد، فهم أمل الأمة، وأولو الأمر، وأهل الحل والعقد، أوجب الله طاعتهم إذا ما وافقت طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم﴾[(٢)]، قال جابر بن عبد الله ومجاهد: "(أولو الأمر) أهل القرآن والعلم، وهو اختيار مالك رحمه الله، ونحوه قول الضحاك قال: يعني الفقهاء والعلماء في الدين"[(٣)].

إن للعلماء الشأن العظيم والجهد الكبير في تعليم المسلمين أمور دينهم ولهم السعي الدائب في تعريف غير المسلمين بفضل الإسلام وخصائصه وسماحة تعاليمه ووسطيتها، فكم من ضالٍ بهم قد اهتدى! وكم من شارد بهم قد أناب! وكم من فاسقٍ بهم قد رشد! فأزال الله بهم

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل (١٧٠/٤) رقم (٣٤٦١).

(٢) سورة النساء: من الآية ٥٩.

(٣) تفسير القرطبي (٢٥٩/٥)، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

اللبس، وأماط بهم الشر والغي، فهل لهم من خلَفٍ أو عوضٍ، فإذا غابوا فشت المنكرات وشاعت الموبقات، وعلا أهل الضلال والكفر، وعزَّ أهل الفساد والشر، ويكون هذا بانتقاصهم ونسبة القبائح لهم.

وعند سقوط هيبة العلماء وضياع الثقة فيهم، فإن هذا يؤثر سلباً على انتشار الإسلام وتعاليمه، فإذا ذُكر اجتهاده في قضية من القضايا كان الناس في ريب من قوله، فيشعر بسقوط منزلته عندهم، وزهدهم فيه، فربما انقطع عن البيان وترك البلاغ وعكف على نفسه لما يرى من أذى الآخرين له حين ينصح ويعلم، كما يرى عدم الفائدة والجدوى لقوله، فبهذا تندر الموعظة، وربما تنعدم فتقسو القلوب وتتبلد العواطف ويُدرس العلم ويُنسى الذكر، وإذا انعدمت الموعظة فتحت أبواب الشر لقعود أهل الخير والعلم عن عملهم وواجبهم، وسبب هذا هو قيام الجراحين بالطعن في العلماء.

كما يبدو جلياً قلة إقبال غير المسلمين على الإسلام حيث يفتقد القدوة التي تتمثل في أهل العلم القائمين بتبليغ الإسلام والتعريف به، فيسمع منهم وينظر إلى سيرتهم فيراها قد تشوهت ونسبت إليهم المناكر التي ينهون عنها فيحجم عن الإسلام في غالب الأمر؛ لارتيابه فيما أُخبر به لفقدان ثقته فيمن بلَّغه، ولكن إذا وجد سيرة هؤلاء المبلغين بيضاء ناصعة لم يلحق بهم عمل مشين أو خلق مزري فإنه يثق به فيما يقول فيصدِّق ويُذعنُ؛ لعلمه بأمانته وصدقه فينشرح صدره للإسلام.

المبحث الثالث

سبل الوقاية والعلاج من ظاهرة تجريح العلماء

إذا كان لتجريح العلماء أسباب أدَّت إليه، فأثَّرَت بالسلب على الدعوة الإسلامية دعاةٍ ومدعوين، فإن هناك سبلاً تعمل على وأد هذه الأسباب من مصدرها وجذِّها من منبتها، وهي سبل الوقاية، كما أن هناك سبلاً للعلاج من الآثار السلبية الخطيرة التي نجمت عن هذه الآفة المشينة وتتمثل سبل الوقاية والعلاج فيما يلي:

المطلب الأول: الأخذ على يد الظالم المجرِّم ونصحه

أرى أن من أكبر أسباب علاج فتنة التجريح هو أن يجد المجرِّح نفسه منبوذاً بين أفراد المسلمين، لا يصغي أحدٌ لقوله، ولا يثق أحدٌ برأيه، ولا ينقله أحدٌ عنه، بل يجد من يرُدُّ شرَّه ويكف طعنه ولمزه، فإذا أُلجم لسانه بمجلسٍ انتقل إلى غيره، فيجب على جلسائه بالمجلس الآخر أن يكونوا كجلساء المجلس الأول فلا يقبلون افتراءه ودعواه، وكذا حتى تضيق به المجالس فينزجر ويردع، فيمسك لسانه عن النقائص خاصة إن أُسديت له النصيحة من مجالسيه، وذلك حين تقع الموعظة موقعها من قلبه فيتذكر الوعيد المرتقب لمن أطلق لسانه في أعراض الناس سيما أهل الفضل والعلم منهم، فيتوب إلى الله ﷻ من فعله، ويحسن الظن في علماء الأمة الثقات، ويدفع عنهم إن ذكرهم أحد بسوء.

إن القدح في علماء الأمة من أشنع الغيبة، ويجب على من استمع إلى غيبة أن يردها، وإن كان هذا في حق عموم المسلمين فما البال بخواصهم وخيارهم، فقد نهى الله ﷻ عن الغيبة قال ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيم} [1]، وأوضح رسول الله ﷺ معنى الغيبة بقوله: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[2].

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من الغيبة، وبيَّن أن عاقبتها وخيمة، تعود جريرتها على فاعلها فعن أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»[3].

وكذا حذَّر علماء الأمة من الغيبة فعن سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ رحمه الله قال: «الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الدَّيْنِ, الدَّيْنُ يُقْضَى, وَالْغِيبَةُ لَا تُقْضَى»[4]، وكان أئمة الإسلام من أشد الناس اجتناباً للغيبة وبغضاً لها حتى كان تركها أحب إلى أحدهم من إنفاق الدنيا وما فيها فعَنْ وُهَيْبٍ قَالَ: "لَأَنْ أَدَعَ الْغِيبَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ أَنْ يَكُونَ لِي الدُّنْيَا مُنْذُ خُلِقَتْ إِلَى أَنْ تَفْنَى فَأَجْعَلُهَا

(١) سورة الحجرات: آية ١٢.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٢٠٠١/٤) رقم (٢٥٨٩) قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في التعليق: (بهته) قلت فيه البهتان وهو الباطل، والغيبة ذكر الإنسان في غيبته بما يكره، وأصل البهت أن يقال له الباطل في وجهه وهما حرامان لكن تباح الغيبة لغرض شرعي.

(٣) رواه الإمام أبو داود في سننه، باب في الغيبة (٢٧٠/٤) رقم (٤٨٨٠) وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢٧٥/٧)، للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: دار السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

فِي سَبِيلِ اللهِ"[١]، وبلغ الأمر ببعض الفقهاء أنه "كان يَتَوَضَّأُ مِنَ الْغِيبَةِ كَمَا يَتَوَضَّأُ مِنَ الْحَدَثِ"[٢].

وهذا حال من ملك نفسه وجاهدها وألجم لسانه عن الحرام ولكن من ترك نفسه دون مجاهدة فإنه يكون عرضة لغواية الشيطان وتزيينه الغيبة، فإنها تُزيَّن حتى كأنها فاكهة ولذا قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: "الْغِيبَةُ فَاكِهَةُ الْقُرَّاءِ"[٣]، وقال بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ الْحَافِيَ، يَقُولُ: " هَلَكَ الْقُرَّاءُ فِي هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ: الْغِيبَةُ وَالْعُجْبُ"[٤].

وإذا أراد المرء أن يسلم من الغيبة فعليه أولاً أن يُحسن الظن بغيره قال سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنَ الْغِيبَةِ، فَلْيَسُدَّ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الظُّنُونِ، فَمَنْ سَلِمَ مِنَ الظَّنِّ سَلِمَ مِنَ التَّجَسُّسِ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ التَّجَسُّسِ سَلِمَ مِنَ الْغِيبَةِ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الْغِيبَةِ سَلِمَ مِنَ الزُّورِ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الزُّورِ سَلِمَ مِنَ الْبُهْتَانِ "[٥].

وإذا وجب على المسلم أن يُمسك لسانه فلا يخوض في عرض أخيه، فإن عليه كذلك أن يرد ويدفع عنه إذا ذُكر بسوء، وهذا الأدب الرفيع ربَّى عليه رسول الله أزواجه، وأمر به سائر أتباعه، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ الراوي: تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ:

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٥٣/٨).

(٢) المصدر السابق (٣٥/٧).

(٣) أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان، باب تحريم أعراض الناس وما يلزم من ترك الوقع فيها، فصل فيما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم شيئاً بسب أو غيره (١٢١/٩) رقم (٦٣٦٠).

(٤) المصدر السابق نفس الباب والفصل (١٢٢/٩) رقم (٦٣٦١).

(٥) نفس المصدر والباب والفصل (١٢٢/٩) رقم (٦٣٦٤) .

وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»(١).

فلم يأذن النبي ﷺ بانتقاص إحدى نسائه من قِبَل الأخرى مع مراعاة ما يكون بين النساء غالباً من الغيرة، فردَّ ﷺ الكلمة التي تُشعر بالقدح والانتقاص، حتى ولو كانت كلمة يسيرة كهذه، ثم حذَّر ﷺ من مثل هذه الكلمة ببيان الوزر المترتب عليها، فعلى المسلم أن يحذر من التساهل في الكلام الذي يقدح في الآخرين وخاصة أهل العلم حتى وإن كان يسيراً في نظره، وإن سمع من يذكر أحداً بالسوء لم يصغِ إليه، ونصحه إن تمكَّن من ذلك، وإلا ترك المجلس وانصرف حتى لا يكون شريكاً في الإثم إن رضي وتابع.

وإذا استمع المسلم لغيبة العلماء ورضي بها أصبح شريكاً للمغتاب في إثمه، ولكن إن نافح عن علماء الأمة المخلصين ودافع عنهم وحفظ لحومهم دفع الله عنه وحمى لحمه من النار فعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أُرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ"(٢).

وإذا أخطأ المرء واغتاب أحداً من المسلمين، واستدرك وأراد أن يكفِّر عن ذنبه، فعليه أن يتوب إلى الله، ويقلع عن الغيبة، ويعزم على عدم

(١) **صحيح**: رواه الإمام أبو داود في سننه، باب في الغيبة (٤/٢٦٩) رقم (٤٨٧٥) وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) **حسن**: رواه الإمام أبو داود في سننه، باب من رد عن مسلم غيبة (٤/٢٧٠) رقم (٤٨٨٣) وقال الشيخ الألباني: حسن.

العودة إليها، ويندم على فعله، ويستغفر لمن اغتابه ليؤدِّي باستغفاره حقه؛ عسى أن يُغفر له قال عَبْد اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رحمه الله: ("إِذَا اغْتَابَ رَجُلٌ رَجُلًا، فَلَا يُخْبِرُهُ بِهِ وَلَكِنْ يَسْتَغْفِرُ اللهَ". وقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: "قَدْ رَوَيْنَا في حديث مرفوع بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ: كَفَّارَةُ الْغِيبَةِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمَنْ اغْتَبْتَهُ")[1].

فعلى كل من يطعن في علماء الأمة أن يعترف بذنبه، ويندم على اقترافه، ويؤكِّد عزمه على عدم التلفظ بكلمة تقدح في الصادقين المخلصين، كما أن عليه أن يدعو لهم بالتوفيق والسداد والمغفرة والرحمة والرضوان، هذا إن لم تبلغ هؤلاء العلماء كلمتُه، أما إن بلغتهم كلمته وجب عليه أن يتحلل منهم، وأن يطلب منهم العفو والصفح، وعلى محترف التجريح أن يعلم أن الله ﷻ له بالمرصاد، فإذا تتبع عوراتِ العلماء تتبع الله عورتَهُ وفضحه في بيته، كما أنه بعمله هذا يكون من المفلسين يوم القيامة حيث سلَّط لسانه على علماء الأمة يخوض في أعراضهم ويختلق لهم السيئات ويتقوَّل عليهم وينسب لهم الزلات ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،

(١) أخرج الأثر الإمام البيهقي في شعب الإيمان، باب تحريم أعراض الناس وما يلزم من ترك الوقع فيها، فصل فيما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم شيئاً بسب أو غيره (١٢٣/٩) رقم (٦٣٦٧).

فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

فيجب على كل مسلم أن يُلجم لسانه عن لحوم العلماء، فلحومهم مسمومة وعادة الله في خذلان منتقصيهم معلومة، ومن وسائل إلجام الألسنة عن أعراض أهل العلم تجنب رواية الأقوال الضعيفة عن أئمة المسلمين، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله وهو ينهى عن رواية الأقوال الضعيفة عن الأئمة والعلماء: "ومثل هذه المسألة الضعيفة, ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين لا على وجه القدح فيه, ولا على وجه المتابعة له فيها, فإن ذلك ضرباً من الطعن في الأئمة واتباع الأقوال الضعيفة, وبمثل ذلك صار وزير التتار يُلقي الفتنة بين مذاهب أهل السنة حتى يدعوهم إلى الخروج عن السُّنة والجماعة, ويوقعهم في مذهب الرافضة وأهل الإلحاد"[2].

فهذه وسيلة يمكن بواسطتها سد الطرق على من يروم القدح في أهل العلم، ففرضاً أن قولاً ضعيفاً نُسب إلى أحد الأئمة وهو أمر لا محيد عنه، فيكفي الاطلاع عليه ومعرفته دون إشاعته بين سائر الناس عالمهم وجاهلهم، فيعجب العالمُ من غرابة القول، وينكرُ الجاهلُ القولَ على صاحبه، ويلتقطه المغرض فيجعله سنداً في قدحه للعلماء، وليس له بحجة، فعلى المتخصصين في شتى العلوم المحيطين بمذاهب العلماء ألا يرووا الأقوال الضعيفة المأثورة عن الأئمة حتى لا يُساء فهمها، ومن ثم يكون إساءة الظن بالأئمة ثم الطعن فيهم.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٧/٤) رقم (٢٥٨١).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٢/ ١٣٧).

المطلب الثاني: بناء الأحكام على اليقين والبينة

أمر الله ﷻ عباده بالتثبت من الأخبار وبناء الأحكام على البينة فقال ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**(١)، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يبنوا أمرهم علي اليقين الصرف والصدق البحت، فلا يُساء الظن بأحد بمجرد أن ينسب أحد إليه شراً وسوءاً بل عليه التثبت، ويجمل به أن يغض الطرف عما لا يعنيه، فلا يتحسس ولا يتجسس، بل يتغافل ويستر إن ظهر له الأمر وتحقق، إذ الأصل السلامة وبراءة الذمة، فعلى المسلم أن يحمل أمر أخيه على العدالة وأن يعامله كما يحب أن يُعامل، وأن يعتقد فيه العدالة كما يعتقد عدالة نفسه، فلا يتهمه في أمر يبرِّئ منه نفسه، ويضع نصب عينه قول الله ﷻ: **﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾**(٢)، وإذا كان هذا الأدب تجب مراعاته مع سائر المسلمين فما البال بشأن خيار المسلمين وعلمائهم، فلابد من حسن الظن بعلماء الأمة العاملين على إحياء شرع الله وحفظه من كل دخيل.

---

(١) سورة الحجرات: آية ٦. وسبب نزول هذه الآية هو ما جاء عن أمّ سلمة رضي الله عنها، قالت: "بعث رسول الله ﷺ رجلا في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قال: فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون قال: فبلغ القوم رجوعه قال: فأتوا رسول الله ﷺ فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله بعثت إلينا رجلا مصدّقا، فسررنا بذلك، وقرّت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال، وأذّن بصلاة العصر; قال: ونزلت الآية. ينظر: تفسير الطبري ت شاكر (٢٢/٢٨٦،٢٨٧).

(٢) سورة النور: آية ١٢.

كما يجب على المسلم ألا يتتبع عورة أخيه، بل يستر عليه ويدعو الله له بالعافية والمغفرة، ولا ينصِّب نفسه حكَماً على الناس بل يدع الحكم لله ﷻ فحسابهم عليه وحده قال الله ﷻ : **﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾** [1]، وقال ﷻ: **﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾** [2] وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: "رَحِمَ اللهُ عَبْدًا لَمْ يُحَاسِبِ النَّاسَ دُونَ رَبِّهِمْ، وَلَمْ يَحْمِلْ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَمْ يَحْمِلْهُ اللهُ لَهُمْ"[3]، فلا ينشغل بما لا يعنيه ولا يكلِّف نفسه ما يُضنيه، ليسلم القلب واللسان أن يصيب ويجرح أي إنسان، سيما أهل العلم والبيان، الداعين إلى الجنان، المنذرين من النيران.

وعلى المسلم الذي عافاه الله من ذنبٍ ابتُلِيَ به غيرُه أن يحمد الله ﷻ الذي عافاه من البلاء، وهداه إلى الخير والرشاد، ويحذر إن عيَّر أحداً بما فيه، وظهرت الشماتة منه أن يُبتلَى بالذنب ذاته فقد كَتَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ إِلَى أَبِي السَّوَادِ الْعَدَوِيِّ: " أَمَّا بَعْدُ، يَا أَخِي فَاحْذَرِ النَّاسَ وَاكْفِهِمْ نَفْسَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ عَاثِرًا فَاحْمَدِ اللهَ الَّذِي عَافَاكَ، وَلَا تَأْمَنِ الشَّيْطَانَ أَنْ يَفْتِنَكَ مَا بَقِيتَ"[4].

وإذا رأى المسلم معصية تُقترف وذنباً يُرتكب عليه أن يغار، إذ يرى محارم الله تنتهك، فيغضب ويكره اجتراء الناس على المحارم، وفي الوقت

(١) سورة الشعراء: آية ١١٣.

(٢) سورة الأنعام: آية ٥٢.

(٣) شعب الإيمان، باب تحريم أعراض الناس وما يلزم من ترك الوقع فيها، فصل فيما ورد من الأخبار في التشديد على من اقترض من عرض أخيه المسلم شيئاً بسب أو غيره (٦٥/٩) رقم (٦٢٦٨).

(٤) المصدر السابق نفس الباب والفصل (٦٨/٩) رقم (٦٢٧٢).

ذاته يكون شفيقاً على العاصي المذنب لما يعلم من شديد عقابه عند الله ﷻ قال أَبو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: " إِنَّمَا الْغَضَبُ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي لِجَرَاءَتِهِمْ عَلَيْهَا، فَإِذَا تَذَكَّرْتَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عُقُوبَةِ الْآخِرَةِ دَخَلَتِ الْقُلُوبَ الرَّحْمَةُ لَهُمْ"(١).

فتعمل هذه الرحمة عملها في قلب المسلم الناسك الصالح، فيرحم المذنب المسكين ويود أن يترك كل معصية، فيسعى لإصلاحه، ويخاطبه بالقول اللين والأسلوب الحسن، فتقع النصيحة من نفسه موقعاً حسناً، فيخشع قلبه وينشرح صدره، فيعمل الصالحات ويجتنب السيئات، وبهذا ينتقل من المعصية إلى الطاعة، ولكن إن أُسيئت معاملته فخوطب بغلظة وفظاظة فإنه يعاند ويكابر ويرد القول والنصيحة ويستمر في معصيته وربما أفسد غيره فيصير مفسداً بعد أن كان فاسداً فيستشري خطره، وكان من الممكن وأد هذا الخطر في حينه.

المطلب الثالث: التزام الأدب عند التصحيح والتقويم

وإن جاوز أحد العلماء الحق والصواب وخالف أمراً مجمعاً عليه، وكان لابد من ردِّه إلى الحق والصواب، فلابد من مراعاة الأدب عند تصحيح خطئه، ويكون هذا من باب تحذير المسلمين من اتباعهم فيما خالفوا فيه إجماع علماء الأمة، فالنقَّاد قديما الذين اشتغلوا بتعديل الرواة وتجريحهم "لصيانة السنة من الدخيل، لم يُفرِّطوا في استخدام هذا السلاح، أو يسيئوا استعماله ، فاكتفوا بالعيب الواحد عن بقية العيوب ، ولم يلتفتوا إلى العيوب الشخصية ، والتي لا علاقة لها بالرواية ، ثم التزموا الأدب عند الجرح ، وما تراه من قسوةٍ في عبارات بعضهم إنما دفعهم إليها واقع

(١) شعب الإيمان (٦٩/٩) رقم (٦٢٧٢).

الراوي وحاله ، ولكنهم في الجملة كانوا يُعبِّرون عن الجرح بألفاظٍ تخلو من القسوة، اللَّهم إلا إذا بالغ الراوي في كذبه أو خطئه، فكانوا يقسون في اللفظ حينئذٍ لبيان حاله وكشف عيبه ليحذر، وكانوا يُعلِّمون طلاَّبهم هذا الأدب الرفيع ، ويوصونهم بالتزام الحيطة والأدب عند القيام بجرح من يستحق الجرح من الرواة"[١] .

ومما يدل على ضرورة مراعاة الأدب عند الجرح الواجب بيانه، أن أئمة النقد التزموا الأدب الرفيع في هذا، وأحسنوا اختيار اللفظ الذي يؤدي الغرض والقصد من التجريح، فعن المزني قال: "سَمِعَني الشافعي يوماً وأنا أقول : فلان كذَّاب، فقال لي : يا إبراهيم اكسُ ألفاظك أحسنها، لا تقل كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء"[٢].

قال السخاوي: "كان البخاري لمزيد ورعه قَلَّ أن يقول : كذاب ، أو وضاع أكثر ما يقول : سكتوا عنه ، فيه نظر ، تركوه ، ونحو هذا ، نعم ربما يقول : كذبه فلان ، أو رماه فلان بالكذب"[٣].

وهذا من أدب السلف الصالح وجميل أخلاقهم، وعظيم إخلاصهم فلا يقدُمُون على تجريح أحد من الرواة إلا إرضاءً لله ﷻ، ومراعاةً لدرء المفاسد وجلب المصالح، فيقتصرون في الجرح على اللفظ المطلوب ويتركون ما عداه، هذا مع جليل عملهم الذي يقومون به، فهم على ثغر من ثغور الإسلام يقومون بحمايته وحفظ تراثه، وينفون عنه تحريف

(١) الجرح والتعديل بين النظرية والتطبيق ص٨٣، د.أيمن محمود مهدي، بدون تاريخ.

(٢) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي ١٢٨/٢، للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(٣) المصدر السابق ١٢٨/٢.

الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، يغربلون المرويات لبيان صحيحها من سقيمها، أما من يقومون بتجريح العلماء في هذا العصر فلا حجة ولا مبرر لما يقومون به إلا الهوى والتشهي والحسد والتعصب، فقد انتهى زمن الرواية، فلأي غرض وقصد تجريح هذا الزمان؟.

المطلب الرابع: وجوب الإنصاف وعدم المحاباة

من أهم السمات التي يجب أن تتوفر فيمن تصدَّى للرد على من خالف أمراً متفقاً عليه، العدل والإنصاف وعدم المجاملة والمحاباة، فلا يحملنَّه اتحاد الموقف الفكري والسياسي مثلاً على غض الطرف عن أخطائه، ومجاملته وتهوين شطحاته، بينما يجلد المخالفَ له بسوط لسانه، ويصفه بعبارات قاسية كالضال والمبتدع والغاوي وغيرها من ألفاظ السب والشتم التي يتمتعون بإصدارها.

وإذا أراد أن يقيس هؤلاء عملهم على نقَّاد رواة الحديث، ويتشبهوا بعلماء الجرح والتعديل، فليعلموا أن أئمة الإسلام كانوا ملازمين للحق منصفين، وكانوا على جانبٍ كبيرٍ من الورع والخشية والحذر من رمي البرآء بالعيب، أو التعرض لأشخاصهم والتشهير بهم، أو محاباة الأقارب، أو الأصحاب أو الموافقين لمذهبهم على حساب قواعد العلم ، فضربوا في ذلك أروع الأمثلة:

فعندما سُئل علي بن المديني عن أبيه فقال : سلوا عنه غيري ، فأعادوا ، فأطرق ثم رفع رأسه فقال : هو الدين : إنه ضعيف، وقال أبو داود : ابني عبد الله كذاب، وقال الذهبي في ولده أبي هريرة: إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه، وقال زيد بن أبي أنيسة : لا تأخذوا عن أخي، وقال الشافعي : يقولون : يحابي فلو حابينا لحابينا الزهري ، وإرسال

الزهري ليس بشيء، وسُئل جرير بن عبد الحميد الضبي عن أخيه أنس فقال : لا يُكتب عنه ، فإنه يكذب في كلام الناس(١).

وقال عبد الرحمن بن مهدي : اختلفوا يوماً عند شعبة فقالوا : اجعل بيننا وبينك حَكَماً فقال : قد رضيت بالأحول يعني: يحيى بن سعيد القطان، فما برحنا حتى جاء يحيى فتحاكموا إليه فقضى على شعبة – وهو شيخه ومنه تعلَّم وبه تخرَّج – فقال له شعبة: ومن يطيق نقدك يا أحول ؟ أو من له مثل نقدك يا أحول. قال أبو محمد هذه غاية المنزلة إذ اختاره شعبة من بين أهل العلم ثم بلغ من دالته بنفسه وصلابته في دينه أن قضى على شعبة(٢).

فهذا مثال عظيم لصلابة الدين والتقوى لا يحمله الحياء من شيخه أو إجلاله وإكرامه على أن يحكم لصالحه، بل يضع الحق هو غايته، فينطق بما يدين به لله ﷻ، دون إيثار لشيخ أو قريب أو والد أو ولد، كما أنهم لا يحملهم شنآن قوم على ألا يعدلوا فلا يحكموا على أحد بما ليس فيه وإن خالفهم، وهذه شهادة أهل العلم لهم قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن له اطِّلاعٌ على سيرة أئمة الحديث الذين لهم لسان صدقٍ في الأمة، وعلى أحوالهم ، علم بأنهم من أعظم الناس صِدْقاً، وأمانةً ، وديانةً ، وأوفرهم عقلاً، وأشدِّهم تحفُّظاً ، وتحرِّياً

(١) الجرح والتعديل بين النظرية والتطبيق ص٨١، د.أيمن محمود مهدي، بدون تاريخ.

(٢) الجرح والتعديل (٢٣٣،٢٣٢/١)، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ ١٩٥٢م.

للصدق ، ومجانبةً للكذب ، وإن أحداً منهم لا يحابي في ذلك أباه ، ولا ابنه ، ولا شيخه ، ولا صديقه"(١).

فإذا اطَّلع أحد العلماء على رأيٍ غريب خالف الكتاب والسنة فإنه يجب عليه أن ينقده بإنصاف ولا يحابي ولا يجامل صاحبه، بل يصدع بالحق ويبين الأمر، فلا يسكت عن قول الحق إذا كان صاحبه على مذهبه أو صديقه أو قريبه بل يجعل المصلحة الدينية هي هدفه ومقصده، حمايةً للدين من الأفكار الغريبة والآراء الشاذة، وإذا كان صاحب الرأي ليس على مذهبه أو مخالف لمشربه وجب عليه أن ينصفه في الرد فلا يحمل عليه حملاً شديداً، ولا يهدر حقوقه، ولا يجحد ما له من فضل، ولا يزري بشخصه، ولا يسخر برأيه، بل يبين الحق بسنده ودليله وذلك بحكمة وإنصاف.

المطلب الخامس: الاقتصار في المعالجة على الحاجة

ومن وسائل الوقاية من فتنة التجريح أن يُقتصر في المعالجة والتصحيح على الحاجة، فمن الخطأ بعث ما مات من آراء قديمة والتصدي للرد عليها وعلى أصحابها، وإذاعة الزلات والآفات التي ولَّى زمنها وانقضى عهد أهلها، فيجب على حرَّاس العقيدة والشريعة مراعاة حاجة الأمة الإسلامية من القضايا التي يقدِّمونها للناس ويثيرونها، فتكون دواءً لأمراض متفشية وحلاً لمشكلات مستعصية، وينبغي أيضًا الرد على الأفكار الغريبة والآراء الشاذة المنتشرة بين أفراد الأمة، ليكون الرد والتصحيح والتقويم دارئاً للمفاسد جالباً للمصالح.

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص٥٥٠، للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، اختصره: محمد البعلي، ابن الموصلي، حققه: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

وإذا راعينا فقه الأولويات في اختيار الآراء الدخيلة لنقدها، وتحديد الفكر الخاطئ لتقويمه، فيجب عندئذٍ أن يُقتصر على الحاجة في معالجة القضايا، وتصحيح الأخطاء، وتقويم الفكر، فلا يُبالغ في قضية على حساب ما هو أهم وأخطر منها، ولا يُسكت عن الخطأ العظيم الذي استشرى وظهر فساده، بل يجب مراعاة الحاجة في كل تصحيح ونقد.

فإذا كانت الفتنة نائمة فلا ينبغي إيقاظها وإذا كان الخطأ محدوداً فلا ينبغي تهويله وتعظيمه، وما دامت البدعة ميتة فلا ينبغي إحياؤها، بل يعمل الداعية على إماتتة الباطل بإحياء الحق مصداقاً لقول الله ﷻ : **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾**(١)، قال الإمام ابن كثير : "زهق الباطل: أَيِ اضْمَحَلَّ وَهَلَكَ، فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ"(٢) وقال ﷻ: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾**(٣).

فإذا نجح الدعاة في نشر الحق وتعميمه، فإن الباطل يضمحلُّ ويذهب، وبالتالي فلا حاجة لإعادة كلام أهل الباطل إلا للتحذير منه والنهي عنه، لأن كثرة الخوض في كلام أهل الباطل يؤدي إلى نشر الباطل واستصغاره في أعين الناس، فيستسهل بعض الناس ارتكاب الحرام إذا علم أن غيره قد ارتكبه، وأن باب هذه المحرمات قد كسره الناس وارتكبوها، فيقترف ما اقترفوه، وربما أعلن الداعية ارتكاب منكر معين في مكان معين بزمن معين وحذّر من ذلك فيتجه ضعاف الناس إلى المكان الذي حدده وفي الزمن الذي عينه لارتكاب الأمر المحرم، وقد يستنكر

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ١١٢/٥.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ١٨.

البعض ذلك في حضور مجلس الذكر والوعظ لعلو إيمانه ولكنه عندما يضعف إيمانه يتجه إلى ما أُخبر به ليرتكب ما استنكره.

فحريٌ بالدعاة أن يحيوا الحق بذكره وأن يميتوا الباطل بهجره، يهجروا ذكره وعمله ونصره، ومن هذا المنطلق يجب الاقتصار في التصحيح والتقويم للآراء الشاذة والأفكار المعوَجَّة والأعمال الشاذة على قدر الحاجة؛ لأنه ربما سيقت بعض هذه المخالفات والشبهات للرد عليها، فيفطن الحضور للشبهة ولا يدركون الرد على الشبهة، وربما كان في الرد قصورٌ فيحدث في نفوس الناس شك وارتياب في القضية محل الرد.

المطلب السادس: نشر فقه الخلاف وثقافة التعايش بين طلائع الدعوة

من الأمور التي تقي الدعاة والعلماء من فتنة التجريح، هي العلم بفقه الخلاف وضوابطه ومعاييره، وتطبيق آدابه بين أهل الفقه والعلم، حتى يتعاونوا فيما اتفقوا عليه، ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، ومن الأسباب التي تؤدي إلى نشر أدب الخلاف بين الدعاة ما يلي:

١- الحرص على عرض الآراء المتعددة بحيادية وإنصاف، ويُراعى هذا في مقام التعليم، فعند تدريس قضية من القضايا فقهيةً كانت أو حديثيةً أو تفسيريةً أو كلاميةً، فإن على الشيخ ألا يقتصر على رأيه الذي يميل إليه ويترك ما عداه، بل يذكر الآراء الواردة في كل قضية ثم يرجِّح ما قويت أدلته في نظره، فعندئذٍ يفقه الطلاب أن في المسألة الرأي والرأي الآخر، فإذا رأى أحداً يعمل وفق رأيٍ يختلف عن رأي شيخه، لم ينكر عليه، بل اعترف بأن له حقاً في العمل بمذهب آخر، وبذلك يعترف كل داعية لغيره بالفضل.

٢- على كل داعية أن ينظر إلى القواسم المشتركة بين مذهبه ومذهب غيره، حينها يرى أنه يتفق معه في أصول الدين الإسلامي وفروعه

ومبادئه العامة وآدابه السامية، ويبقى الخلاف حول بعض القضايا التي لم يرد فيها نص صحيح صريح، ولا إجماع ثابت، ولا قياس معتبر، بل مردها إلى الاجتهاد في فهم بعض النصوص، أو إلى استنباط الحكم من مقاصد الشريعة العامة، فتختلف العقول وتتفاوت في الفهم والنظر والاستدلال، فلو سلِمَ نظرُ العالم وفقهُ الداعية لوجد نفسه متفقاً في معظم الأمور مع من خالفه في قضية فرعية، فإذا ما استبعد هذه القضية الفرعية ونحَّاها جانبًا صار متوافقًا معه في كل شيء، وبسبب سوء فهم البعض للقضايا الخلافية قال بعض العلماء لو اقتصرنا في العمل على المتفق عليه لكفى ولم يضرنا شيء.

١- الاعتقاد بأن الصواب متعدد في القضايا الخلافية، وإذا اعتقد الداعية هذا، هدأت نفسه وسكن قلبه، وزالت حدَّتُه على من خالفه، فتركه وشأنه دون إنكار أو اتهام أو انتقاص أو تجريح؛ حيث يراه مصيباً، لديه الدليل والسند لقوله، مع تفاوت الأدلة بتفاوت فهمها وثبوتها وبلوغها إلى المجتهد.

المطلب السابع: مناقشة أهل التجريح والرد على شبهاتهم

إن من وسائل علاج ظاهرة تجريح العلماء هو قيام علماء الإسلام بمناقشة أهل التجريح في القضايا التي تلتبس عليهم ويضل فيها فهمهم، وكثيراً ما تكون قضية فرعية لا يحتمل الخلاف فيها نسبة الطرف الآخر إلى الغي والضلال، وقد رأيت هنا عرض بعض القضايا التي يثيرونها ويقيمون ويقعدون لها الدنيا وتلك محاولة مني في نقض دعواهم وإزالة لبسهم فمن القضايا الشائكة التي أثاروا لها ضجة كبيرة ما يأتي:

١ – قضية الانتماء للجماعات والأحزاب:

إن المشاركة في حركة دعوية إصلاحية والعمل معها تحت لواء الإسلام مع إخوة مسلمين متعاونين، جعله أهل التجريح محرَّماً قطعاً، وكبيرة تستحق المقاطعة والوصف بالضلال، ويزعمون أن الفئات والطوائف من الناس التي اجتمعت على عمل من أعمال الخير، إنما تفرق باجتماعها هذا الأمة الإسلامية.

وهؤلاء يُسلَّم لهم في القول بعدم شرعية الأحزاب والجماعات "إذا كان التحزب على أصول وقواعد تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، أو إن كان التحزب على بدع، فالتحزب بهذا المعنى مرفوض مطلقاً ولا منازعة في ذلك، وكذلك إن كان التحزب بقصد الخروج على السلطان والسعي في نقض بيعته وحل عقدة إمامته، ولا شك أن هذا مرفوض، ما دامت الراية للإسلام والولاية له والحاكم لم يُر منه كفر بواح ولا منازعة في ذلك، أما عندما تتعاقد جماعة من المسلمين على عمل من أعمال الخير لم يخرجوا فيه عن أصول أهل السنة والجماعة من ناحية، ولم ينازعوا به السلطان القائم من ناحية، ولم يعقدوا الولاء والبراء من ناحية ثالثة فلا وجه للمنع عندئذٍ بحجة التفريق بين المسلمين"(١).

بهذا يتضح أن نكير أهل التجريح على الجماعات الإسلامية المعاصرة ذات الاتجاهات المختلفة والتي تتحد أهدافها هو نكير لا حجة لهم فيه، لأنهم لم ينكروا باطلاً رأوه لدى إحدى هذه الجماعات، وإنما أنكروا الجماعة برمتها، ونشاطها بالكلية، ولم يقروا بالفضل، فلم ينظروا إلى مآلات الحكم، ولم يوازنوا بين المصالح والمفاسد، وما اشتملت عليه

(١) مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية ص٢٦، د.صلاح الصاوي، منشور على موقع www.assawy.com.

الجماعات من معروف ومنكر، وهي قاعدة عامة لابد من مراعاتها عند التصدر للحكم على الجماعات والأحزاب المختلفة.

ويحسن هنا إيراد ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا المضمار حيث قال رحمه الله: "إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر؛ بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا؛ أو يتركوهما جميعا: لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا من منكر؛ ينظر: فإن كان المعروف أكثر أمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم يُنه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه؛ بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكرُ أغلبَ نُهى عنه؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف. ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله. وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يُؤمر بهما ولم يُنه عنهما. فتارة يصلح الأمر؛ وتارة يصلح النهي؛ وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المعروف والمنكر متلازمين"(١).

فلو اجتمعت فئة من المسلمين على جملة من خصال الخير، ثم بدت منهم مناكر طفيفة لا تزن شيئاً في خيرهم وفضلهم، حينها لا يصح نهيهم عن المنكر الملازم للمعروف؛ لغلبة المعروف على المنكر، فلو قامت طائفة من المسلمين بدعوة الناس إلى أركان الإسلام وأصول الإيمان، وإحياء ما اندرس من شعائر الدين، وبذلوا وسعهم لأداء رسالتهم، وهدى الله على أيديهم الكثير، إلا أنه يوجد بينهم من لم يتمكن من العلم

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٣٠،١٢٩).

بتفصيلات المسائل التي يبلغونها، فليس من المعقول أن يقال لهم، كفوا أيديكم واتركوا عملكم؛ لأن بعضكم يجهل بعض أحكام الإسلام، بل يؤمروا بالمواظبة على ما شرعوا فيه، مع نصيحتهم بضرورة تعليم ما تصدَّر من الأحداث، لينضج عملهم ويكتمل فضلهم.

وأغلب ما نراه على الساحة من جماعات إنما هي طوائف من المسلمين، أهمهم أمرُ الأمة، وما حيك لها من مؤامرات ودسائس، فأرادوا إحياء الحق وإبطال الباطل، وكل منها انتهجت سبيلاً، واتخذت وسيلة، تلتقي أحياناً وتفترق أخرى، فبعضها أهمهم شأن عوام المسلمين، وهالهم ما يخيم على عقولهم من الجهل بالدين، فتعاقدوا فيما بينهم على تقديم برنامج علمي مبسط لا يخرج عما عليه أهل السنة، وعملوا على تفعيله وتعميمه بين مختلف البلدان، فمثل هؤلاء لا حرج عليهم، بل لا بد من تشجيعهم وتقدير نشاطهم ومعاونتهم بالمشاركة والنصيحة.

وهناك طائفة من المسلمين استاءوا واغتموا بما تقوم به قوافل التبشير بفقراء المسلمين في إفريقيا وآسيا وغيرها من البلدان، فاتفقوا فيما بينهم على ضرورة مواجهة حركات التنصير بجمع المال اللازم لكفاية المسلمين المستضعفين، وتقديم يد العون والمساعدة لهم في أمور المعاش والمعاد، ومجابهة خطر هذه الحركات بنشر الثقافة الإسلامية بين أبناء المسلمين عن طريق طبع الكتب وتوزيعها وبناء المدارس وتطويرها، وتشييد المساجد وتعميرها، فمثل هؤلاء لا حرج عليهم إذا أدوا هذه الأعمال الجليلة والخدمات النبيلة.

وهناك طائفة ثالثة رأت ما عليه كثير من أبناء المسلمين من غفلة، وشرود عن طاعة الله، وإقامة دينه، فشرعوا يجوبون البلاد؛ لتذكير المسلمين بتعاليم دينهم، وترغيبهم في الخيرات وترهيبهم من المنكرات،

فاستعملوا شتى السبل والوسائل المشروعة لجذب المسلمين إلى سبيل سعادتهم ومصدر عزهم وتمام نعمتهم.

٢- قضية البدعة والاضطراب في فهمها:

ومن القضايا التي يشنِّع بها أهل التجريح ويطعنون بها العلماء قضية البدعة، فعندهم اضطراب وشطط في مفهومها، فينكرون كل محدَث ويعادون كل جديد، ولو لم يخالف الكتاب والسنة، فيتشدقون بحديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»[(١)] فيصفون كل عمل لم يكن على عهد رسول الله ﷺ بأنه باطل ومردود، ويتجاهلون قيد المخالفة المفهوم من منطوق قوله ﷺ: (ليس عليه أمرنا) أي: مخالف لما جاء به ديننا الحنيف الذي مصدره الكتاب والسنة وما تفرَّع عنهما.

ومن الجدير بالذكر بيان مفهوم البدعة؛ لتصحيح الخطأ وتقويم الاعوجاج، فالبدعة في اللغة: "بدع: بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه والشيء الذي يكون أولاً، فهي ما فُعِل على غير مثال"[(٢)].

وفي الاصطلاح عِبَارَةٌ عَنْ: "طَرِيقَةٍ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٍ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ ﷻ"[(٣)].

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه الإمام البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (١٨٤/٣) رقم (٢٦٩٧)، وأخرجه الإمام مسلم، كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٤٣/٣) رقم (١٧١٨).

(٢) لسان العرب (٨/ ٦)، فتاوى البرزلي أو جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ج٦ ص٤٩٩، ٥٠٠، للإمام أبي القاسم المعروف بالبُرزُلي، تقديم وتحقيق د/محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى ٢٠٠٢م.

(٣) الاعتصام ص٥٠.

فالبدعة الموصوفة بالضلالة في قوله ﷺ : وكل بدعة ضلالة هي التي تصادم الشريعة بالمخالفة، وتزيد عليها أو تنقص منها، "وهناك محدثات لا تصادم الشريعة؛ فلم يروا بفعلها بأساً بل قال بعضهم: إنها قربة وهو صحيح كما رُوي أن الناس كانوا يصلون في رمضان وحداناً، وكان الرجل يصلي فيصلي بصلاته الجماعة، فجمعهم عمر رضي الله عنه، فلما خرج فرآهم قال: نعمت البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من هذه – يعني صلاة آخر الليل. وكان الناس يقومون أوله. وقال الحسن: القصص بدعة ونعمت البدعة؛ كم من أخ يستفاد، ودعوة تُستجاب"(١).

ومن البدع ما هو مستحسن ومنها ما هو مستقبح "قال الإمام الشافعي رحمه الله: البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم"(٢).

فالبدعة الحسنة متفق على جواز فعلها، والاستحباب لها رجاء الثواب لمن حسنت نيته فيها "وهي كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيء، ولا يلزم من فعله محظور شرعي، وذلك نحو بناء المنابر، والرُّبُط والمدارس، وخانات السبيل، وغير ذلك من أنواع البر التي لم تعهد في صدر الإسلام؛ فإنه موافق لما جاءت به الشريعة من اصطناع المعروف والمعاونة على البر والتقوى. وما يُعدُّ من البدع الحسنة: التصانيف في العلوم النافعة الشرعية على اختلاف فنونها، وتعيين قواعدها، وتفسير الكتاب العزيز، وجمع الأخبار النبوية، وتفسيرها، والكلام على الأسانيد والمتون، وتتبع كلام العرب واستخراج علوم جمَّة منه، فذلك

(١) حقيقه السنة والبدعة ص٩١، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني، الناشر: مطابع الرشيد، عام النشر: ١٤٠٩هـ.
(٢) المصدر السابق ص٩٢.

كله وما شاكله من علوم حسنة ظاهر فائدته، معين على معرفة أحكام الله، وفهم معاني كلامه، وسنة رسوله، وكل ذلك مأمور به لا يلزم من فعله محظور شرعي"[1].

وأما البدعة المستقبحة فهي "ما كان مخالفاً للشريعة أو ملتزماً لمخالفتها، وذلك منقسم إلى محرم ومكروه، ويختلف ذلك باختلاف الوقائع، وبحسب ما به مخالفة الشريعة تارة ينتهي ذلك إلى ما يوجب التحريم، وتارة لا يتجاوز كراهة التنزيه، فالمحرَّم كالخلوة بالنساء الأجنبيات فإنه يؤدي إلى الهلاك، ومثال المكروه رفع الصوت عند الدعاء"[2].

ومما يؤخذ على أهل التجريح في تناولهم لقضية البدعة ما يلي :

١- أنهم يأخذون بظاهر النص ويستنبطون من النصوص الأحكام التي تخدم فكرهم، وترجِّح رأيهم، ولا ينظرون إلى فهم سلف الأمة لهذه النصوص، بل يزعم بعضهم الأهلية للاجتهاد والنظر في النصوص لاستنباط الأحكام، فيخالفون بذلك ما عليه جمهور أهل العلم من الأئمة الراسخين.

٢- تعميم الحكم على الشخص في سائر أحواله، ففرضاً أن فلانا تلبَّس ببدعة ثم تركها لعلمه بالمخالفة، فإنهم يصفونه بالابتداع ويقاطعونه مقاطعة أبدية، وإن صرَّح بتوبته ظلوا في شك من أمره وأساءوا الظن به.

٣- إذا قام غيرهم بعمل له أصل في الشرع لكنه بطريقة محدثة لم تكن على عهد النبي ﷺ وصفوا ذلك بالبدعة، رغم أن ذلك من باب الوسائل المتغيرة لا المناهج والأصول الثابتة، وهم في واقع أمرهم

(١) حقيقه السنة والبدعة ص٩٢-٩٣.

(٢) المصدر السابق ص٩٤.

لا يستغنون عن الأعمال المحدَثة ولكنهم يصفونها بالهُدى والسداد والاتباع والرشاد، وللإيضاح أذكر مثالاً لذلك: إنهم يصفون جمعاً من الناس يتصدون للدعوة والبلاغ بالبدعة وعند مناقشتهم يحتجون بأنهم اخترعوا أعمالاً لم تكن على عهد النبي ﷺ ، وعند سؤالهم ما هي؟ قالوا: إنهم يمكثون في المسجد بضعة أيام، ويطوفون على الناس يدعونهم إلى تعاليم الإسلام؟ فكم من حائر بدعوتهم قد اهتدى؟ وكم من هالك بسعيهم قد نجا؟ فمن العجب أن يتصف عملهم بالبدعة؟!!

فعمارة المساجد بالعبادة والذكر وإحياؤها بالفقه والعلم، ولزومها وتعلق القلب بها أمر حض عليه الإسلام قال الله ﷻ : {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}(١) وقال ﷻ: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}(٢)، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ومنهم: رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ"(٣)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»(٤)

(١) سورة التوبة: آية ١٨.

(٢) سورة النور: آية ٣٦.

(٣) متفق عليه: أخرجه الإمام البخاري، كتاب الآذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١٣٣/١) رقم (٦٦٠)، وأخرجه الإمام مسلم، كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة (٧١٥/٢) رقم (١٠١٣).

(٤) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢١٩/٢) رقم (٢٥١).

أي: الرباط المرغَّب فيه وأصل الرباط الحبس على الشيء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة.

كما أن الكتاب والسنة حافلان بالأمر بالدعوة والبلاغ، والسعي الدائب والحركة المتواصلة لبذل النصيحة وأداء الموعظة قال الله ﷻ: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[1]، وقال ﷻ: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[3]، وعن أبي عبسٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»[4] .

وعلى هذا فالدعوة إلى الله ﷻ والسعي في ذلك أصل من أصول الإسلام، فضلاً عن كونه هديَ سيد الأنام وطريقةَ صحابته الكرام، فلولا الدعوة والنفير ما انتشر الإسلام في ربوع الأرض، وما عُبِدَ الله في الأرض، ومع هذا فإن قيام تلك الطائفة بواجب الدعوة وبذل المال والوقت في سبيل ذلك يراه أصحاب فتنة التجريح بدعة، ويتناسون أن الوسائل والأدوات متغيرة والأصول والغايات ثابتة، فكم من عمل صالح لم يكن

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٢) سورة التوبة: آية ١٢٢.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٤/٢٠٦٠) رقم (٢٦٧٤).

(٤) أخرجه الإمام البخاري، كتاب العلم، باب من اغبرت قدماه في سبيل الله (٤/٢٠) رقم (٢٨١١).

على عهد رسول الله ﷺ، لكن اقتضته الحاجه وأوجدته المصلحة، فجمع القرآن في مصحف واحد لم يكن على عهد رسول الله ﷺ، وهو مع ذلك من أجلِّ الأعمال، وركوب البحر في الغزو وغيره لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ثم أصبح بعد ذلك ميداناً عظيما للجهاد، وتدوين العلوم المختلفة عدا القرآن لم تكن على عهده ﷺ، ثم أصبحت بعد ذلك من الواجبات حفظاً لها من الضياع، وهكذا فليس كل جديد مرفوض بل إن منه المرفوض والمقبول.

وهؤلاء المنكرون على غيرهم ممارسة الأعمال المحدثة متلبسون بأعمال ووسائل محدثة يمارسونها بكل اطمئنان، فمثلاً: يجتمعون على قراءة كتاب ومدارسته، والاجتماع على قراءة كتاب لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ومع ذلك فهو عمل له أصله في الشريعة الإسلامية، فهل يمكن وصفه بالبدعة والضلالة؟! وفيه الخير العميم والنفع الكبير، حيث يتفقه المبتدي، ويتذكر المنتهي، ويتعلم الجاهل ويَرشد الحائر، ويُقوَّم المعوَّج.

كما أن الاجتماع على مدارسة العلم له أصل في الدين فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"(١).

فمدارسة العلم تفصيل وبيان لما جاء مجملاً في كتاب الله من أحكام وآداب وحكم ومواعظ وقصص وأمثال، فالرسول ﷺ رغَّب في الاجتماع على حلق العلم وترك لنا الوسيلة، فقد تكون وسيلة التعلم قراءةَ

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على القراءة (٤/٢٠٧٤) رقم (٢٦٩٩).

كتاب، أو سماعَ عالم، أو مشاهدة عالم أو حدث أو قصة لاستخراج الفوائد منها وهكذا فالوسائل تتسم بالمرونة، وتقبل التجديد والتطوير، وتخضع لحاجة الناس مع ضرورة الموافقة لروح التشريع.

والسبيل الناجح لعلاج الاضطراب في مفهوم البدعة هو تلقي العلم على يد علماء ربانيين وفقهاء مخلصين، وذلك حتى يتسع الأُفُق، ويتعمق الفهم؛ فيقرون ويعترفون بالحق، وإن كان جديداً لم يألفوه، أو حديثاً لم يعهدوه، وبالتالي يدركون أهمية ما يباشره غيرهم من أعمال، ويعلمون أن لها أصلاً معمولاً به في الشرع فلا يسرعون النكير على أحد من الناس سيما أهل العلم، فلهم من الحقوق ما ليس لغيرهم.

ولابد كذلك من كفِّ اللسان عن اتِّهام الناس وهتك أعراضهم سيما العلماء، فلا ينصِّب المرء نفسه حَكَماً على الناس، يوزعهم أشتاتاً، يحكم على فريق بالهدى والصلاح، وعلى آخر بالفسق والابتداع، بل ينظر إلى عيوب نفسه ليصلحها، وينظر إلى محاسن غيره ليفيد منها، فإذا ما انتهى من إصلاح عيوبه وعلاج أمراضه، وأنَّى له ذلك؟! توجَّه لإصلاح عيوب غيره، وليكن زاده في ذلك حسن الظن والتماس العذر.

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات وهي كالآتي:

أولاً: النتائج

١- أن للعلماء مكانة عظيمة في الإسلام لا بد من حفظها، فهم نقلة الوحي وسادة الشريعة.

٢- أن مستبيح أعراض العلماء يجنح بطبعه إلى السب ويميل إلى الشتم.

٣- أن التعصب الممقوت وفقدان أدب الخلاف سبب رئيس من أسباب نجوم ظاهرة التجريح، حيث لا يرى الطاعن إلا نفسه.

٤- أن من أسباب الطعن في العلماء فقدان المربي والقدوة، وتخلي بعض العلماء عن ساحة الدعوة والتربية، فيفقد طلائعُ الدعوة العلماءَ الربانيين، فيميلون إلى أنصاف العلماء ومدَّعي الفقه.

٥- أنه لا بد من مواجهة هذه الآفات لتجنب المخاطر الناتجة عنها وهذا مسئولية أهل العلم في المقام الأول، فيبذلون الجهد لنشر فقه الخلاف وتوعية طلائع الدعوة، وبيان قيمة العلماء، واطلاعهم على المشكلات العظمى للأمة الإسلامية.

٦- لابد من مناقشة أهل التجريح والرد على شبهاتهم، وتقديم الأدلة الناصعة على خطأ مسلكهم، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويكفوا عن غيهم.

ثانياً: التوصيات

١- أوصي نفسي وسائر الباحثين بإحسان الظن بأهل العلم، والحكم للمرء بغالب أمره.

٢- أوصي أيضاً بحفظ الألسنة عن انتقاص العلماء لأن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة.

٣- إذا أُثر خطأ عن بعض العلماء ينبغي أن ندرك أنهم بشر يخطئون ويصيبون، ولابد من قصر المعالجة على الحاجة.

٤- أوصي إخواني الباحثين بتقصي شبهات أهل التجريح للرد عليها، فمن المؤكَّد أنه سيظهر لهم من الشبهات ما لم يظهر لي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٢- أخلاق العلماء، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ البغدادي، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.

٣- أدب الاختلاف في الإسلام، د. طه جابر فياض العلواني، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، عام النشر:١٩٨٧م.

٤- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، د. عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، الناشر: مكتبة الصحابة، الشارقة – الإمارات، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٥-الأشباه والنظائر، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٦-أصول الحديث وعلومه ومصطلحه للشيخ محمد عجاج الخطيب، دار الفكر بيروت- لبنان، ط الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

٧- الاعتصام، للإمام إبراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٩- الأعلام، للمؤرخ: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

١٠- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١١- البحث العلمي أساليبه النظرية وممارسته العملية د. رجاء وحيد دويدري، نشر: دار الفكر بيروت ط. الأولى ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

١٢- البحث العلمي المؤسسي، د.عبد القادر الشيخلي، نشر: المنظمة العربية للتنمية الإدارية - جامعة الدول العربية - المؤتمر العربي الثالث - القاهرة- مصر ٢٠٠٣م.

١٣- تذكرة الحفاظ ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٤- تصنيف الناس بين الظن واليقين، الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، ١٤١٣هـ.

١٥- التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٦- تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٧- تفسير القرطبي، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
١٨- جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٩- سنن الترمذي، للإمام محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، أبي عيسى، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.
٢٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١- جامع بيان العلم وفضله، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٢- الجرح والتعديل، للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ ١٩٥٢م.

٢٣- الجرح والتعديل بين النظرية والتطبيق، د. أيمن محمود مهدي، بدون تاريخ.
٢٤- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، للإمام زكريا بن محمد الأنصاري، المحقق: د. مازن المبارك، الناشر: دار الفكر المعاصر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.
٢٥- حقيقه السنة والبدعة، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني، الناشر: مطابع الرشيد، ١٤٠٩هـ.
٢٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: السعادة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
٢٧- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة ناشرون – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٨م.
٢٨- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، د. رؤوف شلبي، الناشر: دار القلم، الكويت، ط الثالثة.
٢٩- سنن ابن ماجه، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد (ماجة) القزويني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٣٠- سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣١- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

٣٢- شرح العقيدة الطحاوية، للإمام صدر الدين محمد ابن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٣- شعب الإيمان، للإمام أحمد بن الحسين الخراساني، أبي بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بالهند، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤- عيون الأخبار، للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

٣٥- فتاوى البرزلي أو جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، للإمام أبي القاسم المعروف بالبُرزُلي، تقديم وتحقيق د/محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى ٢٠٠٢م.

٣٦- فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

٣٧- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، للإمام أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، المحقق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٧١م.

٣٨- لسان العرب، للإمام محمد بن مكرم أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٣٩- مجموع الفتاوى، للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٤٠- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للإمام محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره: محمد بن محمد البعلي، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٤١- مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية، د. صلاح الصاوي، منشور على موقع www.assawy.com.

٤٢- مستقبل الإسلام خارج أرضه، الشيخ: محمد الغزالي، نشر: مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة – عمان – الأردن، ط الأولى ١٩٨٤م.

٤٣- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤٤- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الشيخ: محمد الغزالي، الناشر: مجلة الأمة مطابع الدوحة الحديثة ١٤٠٠٢هـ.

٤٥- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، للإمام أبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري الشافعي، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، الناشر: دار العربية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.
٤٦- معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
٤٧- المعجم الوسيط، تأليف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
٤٨- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٤٩- المعيد في أدب المفيد والمستفيد، للإمام عبد الباسط بن موسى العلموي الشافعيّ، المحقق: الدكتور/ مروان العطية، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
٥٠- منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، للإمام أبي زكريا يحيى بن إبراهيم الأزدي السلماسي، المحقق: محمود بن عبد الرحمن قدح، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٥١- الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)
٥٢- وحدة الأمة الإسلامية واجب شرعي، د. إسماعيل شلبي (أستاذ الاقتصاد – كلية الحقوق- جامعة الزقازيق) بدون تاريخ.